
مكتبتك
الأندلسي الأخير
رواية تاريخية
أحمد أمين



الأندلسي الأخير

رواية تاريخية

أحمد أمين



نوع العمل: رواية

اسم العمل: الأندلسى الأخير

اسم المؤلف: أحمد أمين

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الاولى 2017

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura2011.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura2011@gmail.com



الأندلسي الأخير

رواية تاريخية

أحمد أمين





الترقيم الدولي:
978-977-90-0695-6





الإهداء

إلى
أبي وأمي.....
وزوجتي...
أهدي باكورة أعمالي الروائية
عرفانًا وتقديرًا وشكرًا لفضلكم
ومجهودكم ورعايتكم واهتمامكم بي
والعمل على دفعي لأن أكون في صدارة الركب



إهداء خاص

إلى روح الروح

ومهجة القلب

وضياء العين

ولدي حمزة

دعوة من والدك أن يرعاك الله ويصنعك على عينه

* * *



الفصل الأول

غروب مملكة



عندما يكتنف حياتك الملل.. ويصبح إيقاع الحياة بطيء.. حتى تكاد تعتقد أن عجلة الزمن قد توقفت عن الدوران.. وأن لحظات حياتك.. الحالية.. هي.. البداية.. والنهاية.. فلا أنت قادر على تجاوز الحاضر والعبور إلى المستقبل, ولا قادر على الهروب إلى الماضي؛ لتحتمي به من قسوة الحاضر.

إنه الملل.. ذلك القاتل البطيء الذي لا يخطئ هدفه. في البداية.. تشعر بأن حياتك هادئة تمامًا وترتاح لذلك، وبعد فترة تكتشف أنها رتيبة لا جديد فيها فتحاول أن تغير من نمطها، لكن تكتشف أنك وصلت إلى حالة الإحباط، فتحاول الهروب منه فتقع في فخ اليأس، الذي لا مناص منه.

هكذا حياتي.. أو بالأدق هكذا كانت، سنوات طويلة اعتدت على طريقة حياتي، أو هي اعتادت عليَّ.

كنت أحب كل ما في نفسى من مزايا، حتى العيوب، ومع الوقت أصبحت عيوبي مزية بالنسبة إليَّ.

لم أكن أفضل التغيير، أو لم أكن أريده، لا أدري هل هناك فارق بين الأمرين.

في بعض الأحيان كان يدق جرس التنبيه للتغيير فلا أسمعه، أو أدعي أنني لم أسمعه، لم أكن أحب الصدام أو المواجهة، حتى لو كانت مع

نفسي، فدائمًا كنت أوثر الانسحاب حتى لو كانت نتيجة المواجهة محسومة لي.. فالفرار منها هو الحل الأمثل بالنسبة لي.

في البداية.. لم أكن أريد الاستيقاظ مما أنا فيه لكني عندما أردت.. لم أستطع فعل ذلك, كنت أحتاج إلى هزة عنيفة تخرجني مما أنا فيه، لكني لم أعثر على تلك الهزة.. أو لم تعثر هي عليَّ!

لسنوات طويلة اعتقدت أني سأبقى كما أنا حتى تنتهي دقات حياتي على هذه الحال, ويحتويني الزمن السرمدي.

لكن القدر كان رحيمًا بي، فمنحني هزة غيرت مسار حياتي حتى أمسكت بلجام نفسي.. ولهذا قصة.

على غير عادتي استيقظت من نومي مبكرًا.. فيوم الجمعة هو الوحيد الذي أخالف فيه عادتي، لا لشيء إلا لقدوم فرحات، تاجر الكتب القديمة الذي يأتي كل أسبوع في مثل هذا اليوم.

منذ سنوات عديدة تعرفت على فرحات وتوطدت بيننا علاقة صداقة حميمة، كانت الكتب هي المتنفس الوحيد لي في هذا العالم، فكل شيء أحببته، أصابني منه الملل، ما عدا الكتب.

تلك المخلوقات السحرية التي تبحر بك في عوالم عجيبة، حتى تتمنى أن تظل هناك الى الأبد لكن ومع آخر صفحة في الكتاب، تعود بك الى أرض الواقع لتصطدم بذلك العالم القاسي.

وهنا تكمن روعة وسحرية الكتب، فهي تعطيك بعض ما تحتاجه، حتى إذا تملكك الأمر وسيطر عليك، أعادتك سريعًا الى الواقع، لتعود من جديد مهرولًا نحو الكتاب طالبًا منه المزيد.

هكذا فعلت بي كتب فرحات، دائما كان يأتيني بكتب نادرة توقف طبعها منذ عشرات السنين، أو يأتيني بكتب منعتها رقابة السلطة، ولاحقها رجال المصادرة.

كانت تجارته تعتمد على الكتب القديمة، التي ملت أصحابها ففارقتهم، كانت هوايتي ومتعتي تكمن في قراءة الكتب القديمة البالية، ولم أكن أدري السبب فعلى الرغم من اصفرار أوراقها، ورائحة التراب الذي أصبح جزءًا منها، رغم كل هذا كنت أنجذب اليها بشدة أكثر من أي كتاب آخر حديث الإصدار، هل لأنني كنت أرى فيها لمسات من سبقوني وأشعر بأرواحهم تطوف في جنبات الكتاب, بجانب تعليقاتهم التي تركوها على هوامشه، أذكر أني قرأت كتابًا لأحد المؤلفين المشهورين، فلم أستفد من الكتاب بقدر ما استفدت من التعليقات التي تركها قارىء امتلك الكتاب قبلي منذ أكثر من سبعين عامًا, حسبتها من روعتها وجمالها من كتابة المؤلف نفسه، هكذا الكتب لا تكشف عن أسرارها دفعة واحدة.

كان فرحات متعكر المزاج في ذلك اليوم فعلى حد قوله قد حصل على صفقة كتب بسعر باهظ، لم يقدر على تسويقها، لذلك كان رجاؤه يتوقف عليَّ، ولم أخيب رجاءه.

أخذت منه الكتب وحملتها الى حجرتي وبدأت في إعداد طقوس القراءة.

من عادتي عند شراء كتب جديدة أن أضعها كلها أمامي وأبدأ في إلقاء نظرة سريعة عليها مثل معرفة اسم الكاتب واسم الكتاب وهكذا.

استلقيت على الأرض ووضعت كتابًا تحت رأسي كوسادة وأمسكت بأحد الكتب وبدأت في تصفحه، انتقلت من كتاب الى آخر حتى أوشكت على إنهاء التصفح، كانت معظمها كتبًا دينية قديمة الإصدار، لكن شدَّ نظري كتابٌ قديمٌ ملفوفٌ بقطعة قماش مهترئة, حملته بين يديَّ، وأخذت أقلبه برفق، لا أذكر أني رأيت شيئًا مثل هذا من قبل, يبدو كأنه منذ بدء التاريخ.

فككْتُ اللفافة ببطء، ومع ذلك شعرت وكأن أوراق الكتاب تتهاوى بين يديَّ، حتى انتهيت من فك اللفافة التي كانت مربوطة بإحكام، كانت الأتربة تغطي غلاف الكتاب تمامًا فأخذت أحاول إزالتها برفق حتى أتمكن من قراءة ما كتب على غلافه، وما إن انتهيت حتى كدت أفقد وعيي من شدة المفاجأة.

فما أراه الآن هو شبه مستحيل، ظللت جالسًا في مكاني محاولًا استيعاب الأمر وتجميع أفكاري التي شردت مني في تلك اللحظة، وشعرت بأني على وشك أن أفقد صوابي.

لقد كانت الأوراق مكتوبة بلغة (الخميادو) لغة الموريسكيين الأندلسيين الذين ظلوا في الأندلس تحت حكم الأسبان النصارى بعد سقوط غرناطة سنة 1492 ميلاديًّا.

كان تعجبي، من كيفية وصول تلك المخطوطات إلى هنا، فالمخطوطات الموريسكية الموجودة في العالم تعد على أصابع اليد.

أما هذه فحجمها كبير جدًّا، لذلك فهي كنز لأنها لم تترجم قبل ذلك.

أمسكت هاتفي وقمت بالاتصال بفرحات لمعرفة من أين أتى بتلك الكتب.

في بادئ الأمر ظن أني أريد التراجع في الصفقة وإعادة الكتب إليه، أفهمته أني أريد معرفة مصدرها فقط لأمرٍ يخصني.

أجابني في دهشة: لقد كانت تلك الكتب في خزانة مسجد قديم بحي الدرّاسة بالقاهرة، وقد قاموا بعمل ترميمات للمسجد، وباعوا لي هذه الكتب لعدم حاجتهم إليها.

بدأت الأمور تتضح لدي بعض الشيء، فما أحمله الآن بين يدي هو ما كتبه رجل موريسكي جاء من الأندلس إلى مصر وترك هذه المخطوطات هنا.

كنت مدهوشًا مما عثرت عليه كنت أشعر أني في حلم سرعان ما أستيقظ منه.

لم تكن اللغة غريبة علي كنت قد تعرفت عليها أثناء دراستي للغة الأسبانية فقد كان مقررًا علينا مادة الأدب الموريسكي ومن خلاله تمكنت من تعلم اللغة التي تكتب بحروف عربية وتُقرأ بالأسبانية.

أخذت أنظر الى العنوان الموجود أعلى الكتاب واستطعت قراءته بسرعة، كان مكتوبًا:.

«رحلة [علي بدية] من بلاد الأندلس –أعادها الله إلى الإسلام– إلى مصر وبلاد الحجاز»

في تلك اللحظة بدأت أسترجع كل شيء عن الموريسكيين..

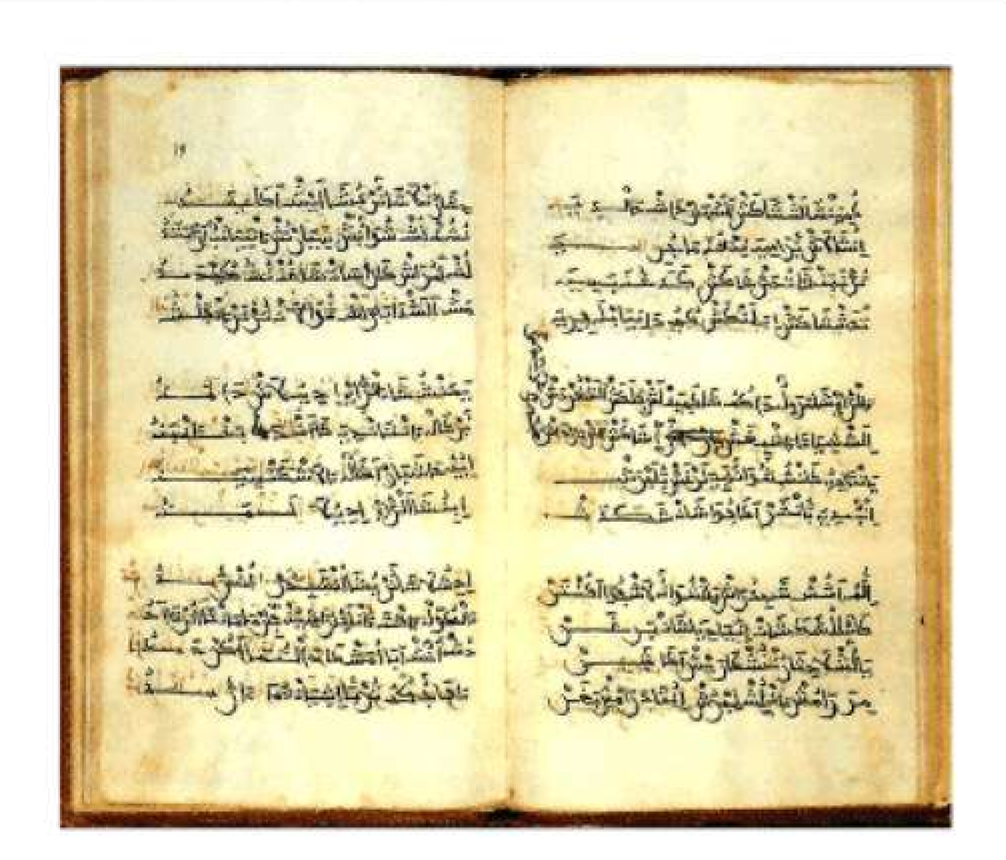
بعد سقوط الأندلس سنة 1492م في يد النصارى الأسبان أو ما يطلق عليهم لقب القشتاليين، وأنهى كل من فرناندو وإيسابيل الملكين الكاثوليكيين حكم المسلمين باحتلالهم غرناطة، أصدروا وثيقة عهد أمان للمسلمين لكن سرعان ما غدروا بهم وأطلقوا عليهم يد محاكم التفتيش الأسبانية التي يرجع تاريخها في أسبانيا الى عام 1478 حينما أصدر البابا سيكتوس الرابع مرسومًا بإنشاء محاكم التفتيش الأسبانية.

والتي أصدرت مرسومًا بتنصير كل مسلمي الأندلس إجباريًا وفي سبيل ذلك، وضعت المحكمة مجموعة قوانين لتحقيق هدفها. فقاموا بتحويل المساجد إلى كنائس ومحو كل ماهو عربي إسلامي، حتى كان قرار تحريم التحدث باللغة العربية. وقامت المحكمة بحرق جميع الكتب

العربية والإسلامية وحظرت على الموريسكيين ارتداء الزي العربي، وحظر استعمال الحمام العربي، وحظر الوقوف تجاه القبلة، ومنع التسمي بأسماء عربية وإجبارهم على التسمي بأسماء نصرانية، وإجبارهم على تناول لحوم الموتى ولحم الخنزير، وكثير من تلك المحظورات التي وضعتها محاكم التفتيش. كانت عقوبة من يفعل ذلك أو يضبط معه كتاب عربي مصادرة أمواله، وحرقه حيًا في الحفلات التي كانو يقيمونـها.

في بادئ الأمر ظن الأندلسيون أن الأمر مجرد تهديد لهم من النصارى، لكن محكمة التفتيش عمدت الى إثبات تهديدها فسرعان ما نقلت الريح الى خياشيمهم في أحد أيام شهر أيار سنة 1529 رائحة جسدَي اثنينِ من أهلهم حرقًا في أول احتفال ديني شهدته غرناطة.







وبعد ذلك تبعهم آلاف من الموريسكيين قضوا نحبهم حرقًا على يد محكمة التفتيش.

ولكي يتفادى الأندلسيون الذين أطلق عليهم فيما بعد لقب الموريسكيين ذلك الأمر، قاموا بكتابة ما تبقى لديهم من تعاليم إسلامية وآيات قرآنية بلغة الخميادو، وهي تحريف أسباني لكلمة (الأعجمية)، وكانت تكتب بحروف عربية لكن تنطق بالأسبانية فمثلا كلمة الله في الأسبانية تكتب هكذا DIOS وعند تحويلها الى الخميادو تصبح هكذا (ديوس).

فإذا وقعت تلك الاوراق في يد محاكم التفتيش عجزت عن معرفة محتواه، وبذلك يتفادى الموريسكيون بطش المحكمة, التي قامت بحرق الآلاف منهم وقتلهم بأبشع الطرق بعد تعذيب لا يحتمله بشر.

أفقت من ذكرياتي وأنا ما زلت ممسكًا بالمخطوطات, كنت أشعر وكأني في حلم سرعان ما أستيقظ منه.

أخذت الخواطر والأفكار تتقاذفني حتى استقرت في ذهني فكرة عجيبة.

ما دامت هذه الأوراق قد وصلت إلى يدي فلا بد أن هناك سبب، لذلك يجب أن أترجم هذه المخطوطات وبسرعة.

لم يكن الأمر سهلًا عليَّ ولا هيّن، فتحويل الكتابات الموريسكية إلى أسبانية حديثة وتحويلها بعد ذلك إلى اللغة العربية ليس بالأمر السهل

فالصعوبات كثيرة، منها على سبيل المثال معرفة الكلمات القديمة التي لم تعد تستعمل ومعرفة بدائلها الحديثة لمعرفة المراد من الكلمات.

استغرق الامر مني ثلاثة أشهر كاملة كانت في غاية المتعة وأنا أترجم تلك المخطوطات.

كنت أشعر بأني أعيش تلك الأحداث وأحيا في زمن الموريسكيين.

كانت دموعي تتساقط كلما مررت على تلك الأحداث المؤلمة التي عانى منها الأندلسيون.

وجدَ بعض الخرائط التي تحتوي على بعض الرموز التي لم أفهم معناها لذلك تركتها جانبًا وقمت بترجمة ما كتبه (علي بدية).

بعد انتهائي منها وضعتها أمامي في فخر وأخذت أتأملها، تلك الأوراق التي حوت من الوقائع التاريخية ما يشيب له الولدان.

كنت أشعر وكأن أرواح الموريسكيين تطوف صفحات الكتاب مسطرة سطوره بدمائهم وأشلائهم ودموعهم الغزيرة التي ذرفوها على الإسلام في الأندلس.

كانت الأوراق مقسومة إلى جزءَين، أحدهما كتبه (علي بدية) صاحب المخطوطات بنفسه، والآخر كتبه رجل أندلسي من أهل غرناطة يسمى أبا الحسن الغرناطي ذكر فيه آخر خمسة أيام قبل سقوط غرناطة، وقد وصلت أوراقه إلى علي بدية فقام بترجمتها من العربية إلى الخميادو.

كانت هذه هي محتويات المخطوطات كما كتبها علي بدية بنفسه دون تصحيح أو تدخل مني إلا في بعض الأحيان، إذا اقتضت الضرورة ذلك، فبعض الكلمات والعبارات كانت مطموسة وعجزت عن قراءتها لذلك قمت بوضع عبارات أخرى لتكمل السياق دون أن تؤثر على ما كتبه بدية.

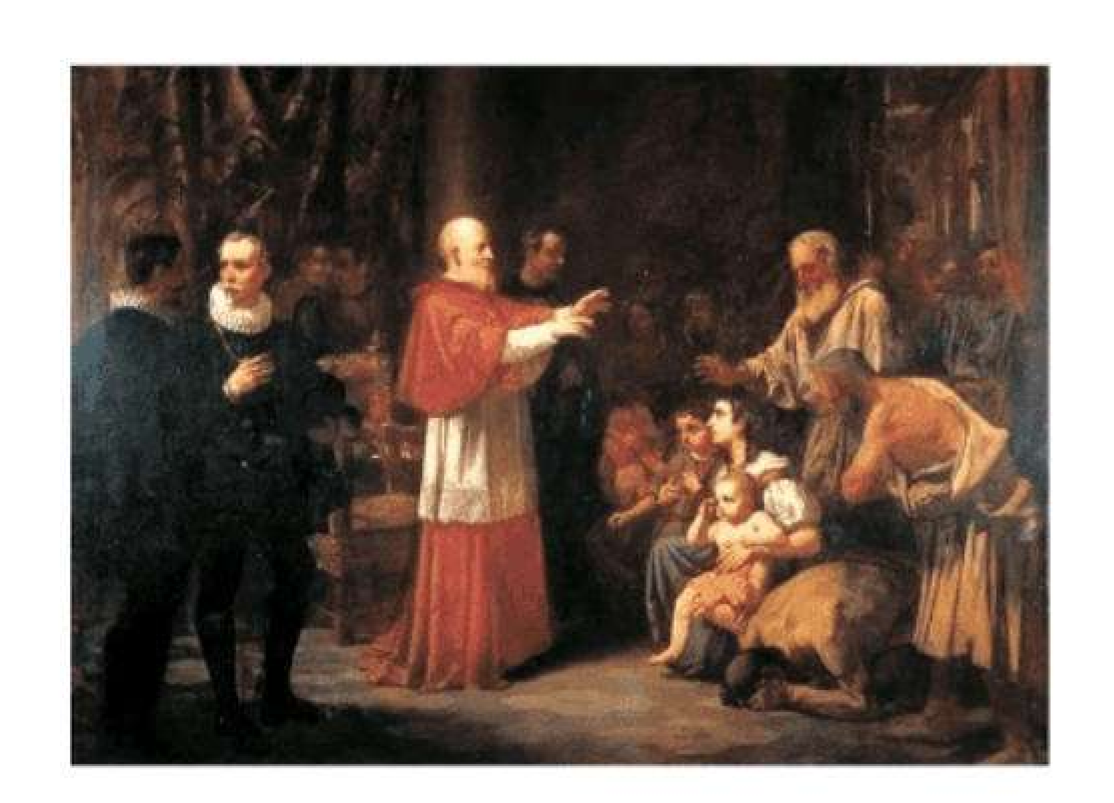
حتى الأخطاء اللغوية البسيطة قمت بغض الطرف عنها ليصبح ما كتبه بدية أمام الناس كما أراد ليقرأها العالم أجمع، ليعرف كيف قاسى هؤلاء المسلمون في سبيل دينهم وعقيدتهم.

حرق المصاحف والكتب العربية





أحد القساوسة وهو يقوم بتعميد المسلمين





نص المخطوط

نحن الآن في عام 1805من ميلاد المسيح υ.

الأمور في غرناطة مضطربة الآن، والغضب عم أرجاءها، وقوات محكمة التفتيش تتحرك كالذئب المسعور لم تترك شبرا في غرناطة إلا وقامت بتفتيشه والبحث فيه، فما حدث في الشهر الأخير أطار صواب عقولهم وجن جنونهم.

منذ شهر تقريبًا قامت محكمة التفتيش بالتوصل إلى مكان آخر مسجد للموريسكيين في غرناطة، كان الأمر بالنسبة إلى المحكمة صدمة رهيبة وفشلًا مدويًّا.

فطوال سنوات طويلة ظنوا أن المسلمون في أسبانيا قد انتهوا نهائيًّا إما بالقتل وإما بالتنصير.

لكن اكتشاف ذلك المسجد أثبت لهم رغم كل الدماء التي أسالوها والرقاب التي قطعوها أن الإسلام ما زال حيًّا في الأندلس.

كانت غضبة رجال المحكمة شديدة لذلك لم ينتظروا التحقيق مع الموريسكيين هذه المرة، بل قاموا بقتلهم فورًا وأحرقوا كل من كان في المسجد وهم ساجدون لله.

الآن لم أعد أدري هل يوجد موريسكيون غيري أم أني آخرهم، فعائلة المورثو قتلوا جميعا منذ ثلاثة أشهر، أما عائلة المندخار فقد أصبحت

نصرانية تماما بعد موت عائلها (دون مندخار) الذي لم يقدر على إيصال الإسلام إلى عائلته خوفًا عليهم وعلى نفسه من محاكم التفتيش.

أما عائلتي فقد رحلت منذ زمن طويل فأنا آخر رجل في عائلة بدية.

تقع الآن على عاتقي مهمة خطيرة، فجميع وثائق الموريسكيين وكتاباتهم موجودة في بيت (الشيخ عمر) آخر شيخ للموريسكيين في غرناطة، وقد قتل في المسجد الذي تم إحراقه مع باقي الموريسكيين.

كان يقع على كاهلي عبء إحضار تلك الأوراق فهي تحمل آخر تراث لنا في الأندلس.

في المساء تسللت بحذر شديد إلى بيت الشيخ عمر أو(دون دييجو) كما يعرفه النصارى, كان المنزل قد نهب وسرقت محتوياته من قبل محكمة التفتيش لكن -بفضل الله- لم يصلوا إلى تلك الشقوق التي في سقف البيت حيث يضع الشيخ عمر المخطوطات، حملتها وانصرفت بسرعة حتى لا يلاحظني أحد.

عدت إلى حجرتي ووضعت الأوراق أمامي وأخذت أقلبها في حرص شديد، فمع أني راهب في هذا الدير منذ 12عامًا إلا أنهم ما زالوا يشكون في انتمائي للموريسكيين كانت الرهبنة هي وسيلتي الوحيدة للهروب من عيون محاكم التفتيش، وأيضًا كانت وسيلتي للاتصال بمن تبقى في الأندلس من الموريسكيين.

كنت همزة الوصل بينهم وبين الشيخ عمر آخر من تبقى لديه بعض التعاليم الإسلامية وبعض آيات القرآن كان بمثابة معلمنا وقائد الموريسكيين، كان بالنسبة لنا هو الأمل الذي يتجدد في نفوسنا كلما رأيناه، لكن وبعد اليوم لم يعد هناك شيخ للموريسكيين بل وحتى لم يعد هناك موريسكيين...

الآن لم يتبق أحد سواي........

كانت الأوراق التي حصلت عليها خطيرة، لذلك يجب أن أحفظ ما فيها وأحرقها بعد ذلك.

لكن شد انتباهي كتاب صغير وسط الأوراق كان يبدو عليه آثار الزمن.

أمسكت الكتاب بحرص شديد كان عليه رباط خارجي قمت بفكه برفق وفتحت الكتاب وكانت المفاجأة قوية جدًّا........

لقد كان الكتاب مكتوبًا بالعربية فمنذ وعيت على الحياة لم أشاهد إلا بعض الكتابات البسيطة، أمّا أن أرى كتابًا فكان بالنسبة إلي أمرًا مستحيلًا، أخذت أتساءل: كيف تمكن الشيخ عمر من كتابة كل هذا الكم من العربية؟!

مع أنه كان أعلمنا بها الا أنه كان لا يقدر على كتابة بعض ورقات من هذا الكتاب فحصيلة اللغة العربية عندنا قتلها النصارى بالحرق والذبح!

حتى عندما بدؤوا عمليات التنصير بعد سقوط غرناطة اقترح بعض القساوسة ترجمة الإنجيل إلى العربية حتى يسهل عليهم عمليات التنصير لكن محكمة التفتيش رفضت وقالت إن العربية لغة نجسة، ولذلك لا يمكن ترجمة الإنجيل إليها. وقالوا أيضًا: إن الإنجيل إذا ترجم إلى العربية فسوف يزداد الموريسكيين تواصلًا مع لغتهم.

وهذا أمر مرفوض من جانب المحكمة كانت تريد محو كل ما هو إسلامي وعربي في الأندلس.

تلاشت كل تساؤلاتي وأنا أقرأ أول صفحة من هذا الكتاب وكانت بعنوان:

(الأندلسي الأخير)

وكتب تحتها بخط صغير:

(فرغت من هذا الكتاب بعد تسليم أبي عبدالله بن الأحمر غرناطة للنصارى)

وتحتها بقليل كتب اسم الكاتب (أبو الحسن الغرناطي).

إذن فهذا الكتاب منذ سقوط غرناطة، يبدو أن الشيخ عمر قد ورثه عن بعض أجداده.

فغرناطة سقطت في عام 1492والآن نحن في عام 1805 لقد مرَّ حوالى أربعة قرون على وجود ذلك الكتاب هنا.

كان الكتاب بمثابة كنز يجب المحافظة عليه ومعرفة فحواه لذلك قررت نقل الكتاب من العربية إلى اللغة الموريسكية فوجوده باللغة العربية خطرشديد عليَّ.

كنت أعلم أن الأمر عسير ولكن لم يعد من الموريسكيين سواي لذلك وجب على أن أقوم بهذه المهمة مهما كلفني الأمر من جهد وعناء.

بدأت في الترجمة وأنا أبتهل الى الله أن يساعدني في هذا المر فهو بالنسبة إليَّ كنقل جبل حجرًا حجرًا من مكان إلى آخر. في تلك اللحظة تذكرت كلمات أبى وهو يعلمنى العربية وأنا طفل صغير كنت عندما أجد صعوبة في تعلمها كان يهمس في أذني قائلًا:

اللغة ليست مجرد مجموعة كلمات وقواعد، بل هي أمرٌ أكثر حياة.

كان يعطيني بعض الجمل مكتوبة بالقشتالية[1]، ويطلب مني تحويلها إلى العربية، وهو يقول لي: عندما تترجم عليك أن تترجم مشاعر لا أن تترجم كلمات.

كان كتاب أبي الحسن الغرناطي مقسم إلى خمسة أجزاء تناول فيها آخر خمسة أيام في غرناطة.. لذلك قمت بوضع كل يوم في ورقات منفصلة ذاكرًا في بدايتها رقم اليوم.

(1) اللغة الأسبانية.

اليوم الأول

صورة حديثة لحي البيازين





منذ وقت طويل لم آتِ إلى هنا حيَّ البيازين، ذلك المكان الذي يشع منه حماس غرناطة ويخرج منه فرسانها وأبطالها, كان الحيُّ شبهَ خالٍ من السُّكَّان، فمعظمهم قد خرجوا أمس للقتال مع موسى بن أبي الغسان فارس غرناطة وآخر من يطلق عليهم لقب الرجال.. كان الصمت والسكون يسيطرانِ على الحي بأكمله ووجوه الناس تتحاشى النظر إلى بعضها حتى لا تتكلم، حتى البيوت كنتُ أشعر أنه لو كان لها لسان لفضلت السكوت الآن.

هل للصمت رائحة؟ أم أنها رائحة الموت ترسم خطوطها على وجوه الأندلسيين، وتحفر على جباههم آلام الزمن وعذاباته؟

منذ أن وصلنا في الصباح خبر مقتل موسى حتى عم الحزن أرجاء غرناطة واضطربت أركانها، كان هو أملنا الأخير في الدفاع عنها وعن آخر ما تبقى لنا من الأندلس.

والحفاظ على آخر معقل للمسلمين، فمنذ بدأ الحصار لم يكفَّ موسى وفرسانه عن المواجهة والصمود في وجه النصارى ومحاولة فك الحصار عن غرناطة، تاركين ورائهم كل أصوات الهزيمة والانكسار، ومضوا في جهادهم لرفع الحصار وفك الكرب عن غرناطة لكن ما حدث كان قدر الله.

من بعيد لمحت بعض النعوش محمولة على أعناق الرجال، كان أهالي حي البيازين يقومون بدفن قتلاهم ممن قتلوا مع موسى بن أبي الغسان.

أما موسى فلم يعرف لجثمانه أثر، علّه لم يرد أن يكون له قبر لتظل ذكراه في كل قلب.

اقتربت من بعض الرجال كانوا يتصايحون حول أمرٍ ما.

لقد كثر الصياح في غرناطة هذه الأيام!

كانوا يتجادلون حول ما فعله موسى الغساني وفرسانه، أحد هؤلاء الرجال تكلم بحدة عن موسى وتهوره وكيف أنه ورط نفسه وجنوده في معركة غير متكافئة كانت نهايتها مصرعه.

رد عليه رجل آخر قائلًا: إن موسى رفض أن يسلم أرضه وبلده للأعداء ودفع حياته ثمنًا لذلك، لقد فضل موسى أن يموت على أن يسلم أرضه للنصارى.

أشاح الرجل الآخر بوجهه وهو يقول: لقد مات على كل حال.

لا زلت أذكر موسى عندما التقيته وهو يستعد للخروج للقتال ودار بينى وبينه حوار هامس أنهاه لى قائلًا: أنا لن أسلم رايتي ولا أرضي لغزاة.

يومها لم يطلب مني الخروج للقتال، ولا أدري لماذا لم أخرج أنا أيضًا.

لستُ جبانًا ولا رعديدًا، ومع ذلك لم أخرج للقتال.

كل ما قاله لي: من لم يقاتل اليوم.. فلن يقاتل أبدًا يا أبا الحسن!

قالها وهو يركض بجواده بعيدًا نحو رفاقه أو نحو مصيره لا أدري أيهما كان أقرب.

ابتعدت عنهم وأنا أتذكر كلمات موسى بن أبي الغساني التي قالها أمام رسول ملوك النصارى حينما طلبوا من أبي عبد الله بن الأحمر تسليم غرناطة، فصاح فيهم بصوت عالٍ قائلًا: «ليعلم ملك النصارى أن العربيَّ قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها, وليكسبها غالية. أما أنا فقبر تحت أنقاض غرناطة، في المكان الذي أموت مدافعًا عنه، خيرٌ لي من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين».

حتى عندما حاول وزراء أبي عبد الله بن الأحمر إثنائه عن محاولة الدفاع عن غرناطة بحجة نفاذ المؤن والموارد، صرخ موسى في وجوههم قائلًا: «لم تنضب كل مواردنا بعد، فما زال لنا مورد هائل للقوة، كثيرًا ما فعل المعجزات، ذلك هو بأسنا فلنعمل على إثارة الشعب ولنضع السلاح في يده ولنقاتل العدو حتى آخر نَسَمة، وإنه لخَيرٌ لي أن أُحْصَى بين الذين ماتوا دفاعًا عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها».

كان وزراء أبي عبد الله هم آفة حكمه وسبب فساده، لم يعتادوا إلا على العويل والبكاء كلما حدثت أزمه في غرناطة، كانوا يحاولون إيصال هذه الروح القاتلة لنا، وفي إحدى لقاءاتهم قال لهم موسى عابسًا وقد ملَّ صراخهم وبكاءهم: «اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا

قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة, ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة.

ذلك هو موت مجيد فلنمُتْ دفاعًا عن حريتنا، وانتقامًا لمصائب غرناطة، وسوف تحتضن أمُّنا الغبراء أبناءها أحرارًا من أغلال الفاتح وعسفه، وسوف تحتضن أمنا رفاته، فإنه لن يعدم سماءً تغطيه، وحاشا لله أن يُقال إنَّ أشراف غرناطةَ خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها».

أما آخر كلماته التي قالها قبل خروجه الأخير للقتال:

«لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولاتركنوا إلى شهامة ملكهم.

إن الموت أقل ما نخشى، أمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا, وتخريب بيوتنا وهتك أعراض نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش والتعصب الوحشى والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق. هذا ما سوف نعانى من مصائب وعسف، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه».

نعم يا ابن الغسان لن ترى ذلًّا ولاهوانًا بعد اليوم، أما نحن فيبدو أننا لن نرى إلا ذلًّا ومهانة بعدك يا فارس الأندلس.

من بعيد شاهدتها تجلس وحدها عجوز متشحة بالسواد كأنها تجسد حال غرناطة هذه الأيام.

كانت تبكى بحرقة ويصدر منها صوت ضعيف, اقتربت منها محاولًا الإنصات لما تقول، فسمعت منها ما أبكانى.

كانت المرأة تقول بصوت مملوء بالحزن والانكسار:

غرناطة يا مولد نفسى..

غرناطة يا موطن عرسى..

كم صرختِ! كم تألمتِ! كم ناديتِ!

إن لم يجبك تاشفيـــــن، أو الغافقي[1]..

فعزائي أن على أسوارك.. مـــــات الغســـــاني!

لم أحتمل تلك الكلمات فسقطت العبرات من عينيَّ, وشعرت وكأن نياط قلبى تتمزق كمدًا وحزنًا على غرناطة.

رفعت المرأة رأسها فجأة فرأتني وأنا أنظر إليها، فاعتذرت عن الوقوف أمامها وهممت بالانصراف فاستوقفتني بإشارة من يدها فتسمرت مكاني، أخذت تنظر إليَّ، ثم قالت:

هل كنت تبكي يا بني؟!

(1) يوسف بن تاشفين وعبد الرحمن الغافقي من قادة الأندلس الأبطال المشهود لهم بالقوة والكفاءة.

لا أدري هل من بشرٍ يقدر على سماع تلك الكلمات ولا يبكي، إنها كلماتٌ قادرةٌ على جلبِ الدمعِ من جلمود الصخر.

قلت لها والدمع ينهمر من عينيَّ: لقد سمعت كلامك فبكيت...

وضعت المرأة يدها على رأسها وتأوهت بصوت خفيض وهي تقول: إذا بكى رجال غرناطة فماذا تبقى لنسائها؟!

صمتت قليلًا ثم أردفت قائلة:

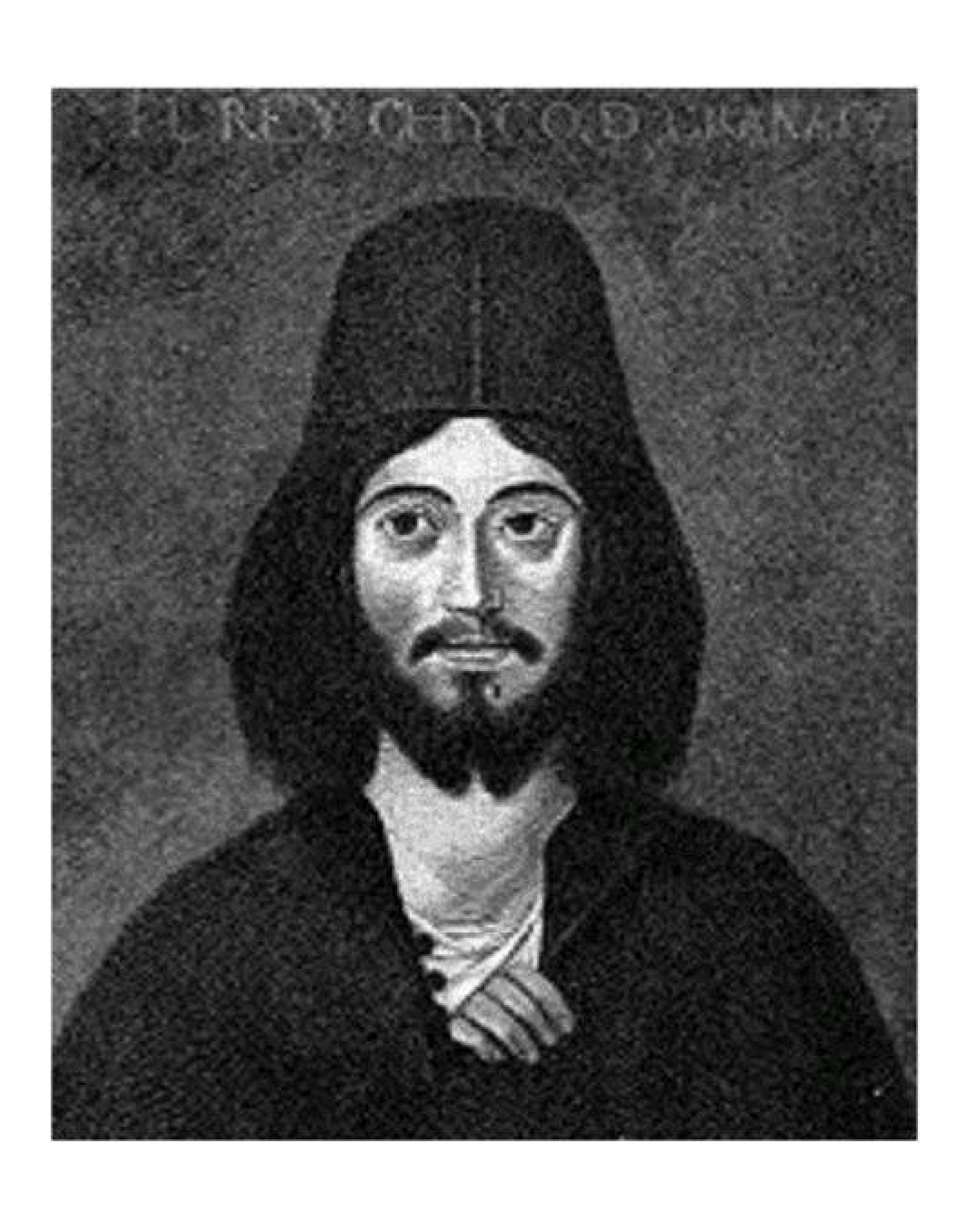
يا بني إن العروس إذا زفت إلى زوجها خضبوا يدها بالحناء، أما الرجال إذا زفوا إلى الشهادة خضبوا أيديهم بالدماء. قاتلوا عن شرف غرناطة وموتوا كرامًا قبل أن تتمنوا الموت فلا تجدوه...

قالتها لي ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عني.



اليوم الثاني

صورة أبي عبدالله بن الأحمر آخر ملوك غرناطة



طوال سنوات اعتدتُ أن آتي كل يوم إلى السوق حتى لو لم يكن لى حاجة أقضيها فيه.

لكن السوق هذا اليوم كان خاليًا تمامًا، حتى التجار الذين كانوا يملؤون الدنيا ضجيجًا وهم ينادون على بضاعتهم لم يفتحوا حوانيتهم اليوم.

كانت الشوارع كئيبة وخالية، والرياح تصفر في جنباتها أو تصرخ. لم أستطع أن أتبين الأمر، أخذت أجول ببصري في المكان باحثًا عن أي شيء حتى شاهدتها مقبلة في اتجاهى. طوال خمسة أعوام اعتدت أن ألتقي (طروب) كل يوم في هذا المكان.

لم أكن أكف عن إرسال كلمات الغزل والحب لها، ولم تكن تكف عن المزاح والضحك.

مجرد رؤيتها قبل ذلك كان كفيلًا ببث السعادة والفرح في قلبي,

كانت جميلة، فاتنة، أندلسية، وهل في الدنيا مثل طروب؟!

أما اليوم.. فلم أكن أرغب في الحديث معها وهى أيضًا يبدو أنها لم ترد ذلك، فقط اكتفينا بتبادل النظرات، وانصرف كل منا إلى حاله.

كانت نظراتنا.. حزينة..

ومنكسرة..

كنا نشعر بضياع أنفسنا..

كنا نشعر بضياع.. غرناطة.



لم أصدق أني ذهبت وتركت طروب بدون أن ألقي عليها التحية، لكني ذهبت وجرح غرناطة يتسع في قلبي..

جرحٌ يبدو أنه لن يلتئم أبدًا..

استكملت طريقي حتى المسجد الكبير في غرناطة..

وبالقرب منه شاهدت طفلًا صغيرًا يجلس على عتبة المسجد وهو يبكي، اقتربت منه وربتُّ على كتفه برفق، كان الولد يبكي بحرقة شديدة لا أذكر أني رأيت بكاءً مثل هذا،

أخذت أسأله عن اسمه وعن أبيه لآخذه إليه.

فأخبرني أن أباه قد قتل مع موسى بن أبي الغسان بالأمس.

(آهٍ لليتامـــــــى، من لهم بعد غرناطة؟!)

نظر إليَّ الطفل مستكملًا حديثه، والدموع تملأ عينيه، وبصوت مبحوح من كثرة البكاء قال:

أنا لا أبكي أبي، لكنني أبكي لأنه قال لي وهو خارج للقتال: إذا هزمنا يا بني لن تسمع الآذان في غرناطة بعد اليوم، وسيعلو الصليب على المآذن.

(تبًا للعجائز، والصغار ينطقون بما عجز عنه الحكماء)

استكمل الولد حديثه موجهًا السؤال لي قائلًا:

أحقًا سيحدث ذلك يا عَمّاه؟!

ألجمتْ كلمات الطفل لساني وحارت أفكاري..

رفعت رأسي ناحية المئذنة، ثم نظرت إلى الولد ولم أجد جوابًا غير البكاء.

لعل البكاء كان الجواب الأشهر في غرناطة هذه الأيام.

انتصف النهار فوجدت نفسي في أحد أزقة غرناطة، التي تعج بالفقراء، كان الحزن يكسو وجوههم أكثر من أي أحد في غرناطة.

بَدَتْ من بعيد مشاجرة، فأسرعت ناحيتها لأرى الأمر، كان أحد أصحاب الحوانيت يتشاجر مع أحد المتسولين، لم أفهم سبب المشاجرة لكني سمعت التاجر يقول له:

أنتم لا يهمكم في هذه الحياة إلا أن تملؤوا بطونكم بدون عمل أو جهد، أما نحن فندفع ثمن الحرب والحصار. ماذا تملكون في غرناطة حتى تخافوا عليها؟! أنتم تتمنون سقوطها علكم تصبحون أثرياء مع سادتكم الجدد.

اندفع المتسول في الكلام قائلًا بحزن ومرارة وبصوت يتهدج بالدموع: غرناطة لا تعني لأمثالك شيئًا، ولن يفرق الأمر معك سواء كان الحاكم ابن الأحمر أو النصارى، في الليل تأوي إلى منزلك ونأوي نحن إلى شوارعها وحقولها، إلى ترابها نحتضنه ونحتمي به، أمثالك لا يعرفون

ما غرناطة، إنها الروح التي تسري في أجسادنا فتدفع في عروقنا نبض الحياة، أما أنت فكل ما يهمك هو كساد تجارتك.

صمت التاجر تمامًا وأخذ ينظر إلى المتسول في ذهول!

استكمل المتسول حديثه قائلًا:

أنتم الأغنياء لا تعرفون حَرَّ غرناطة ولا بردها ولا حنانها، صحيح أننا لا نمتلك شيئًا فيها، لكننا قدمنا إليها عرقنا ودماءنا فامتزجوا بترابها، قدمنا إليها أرواحنا بدون أن ننتظر منها شيء فماذا قدمتم أنتم؟!

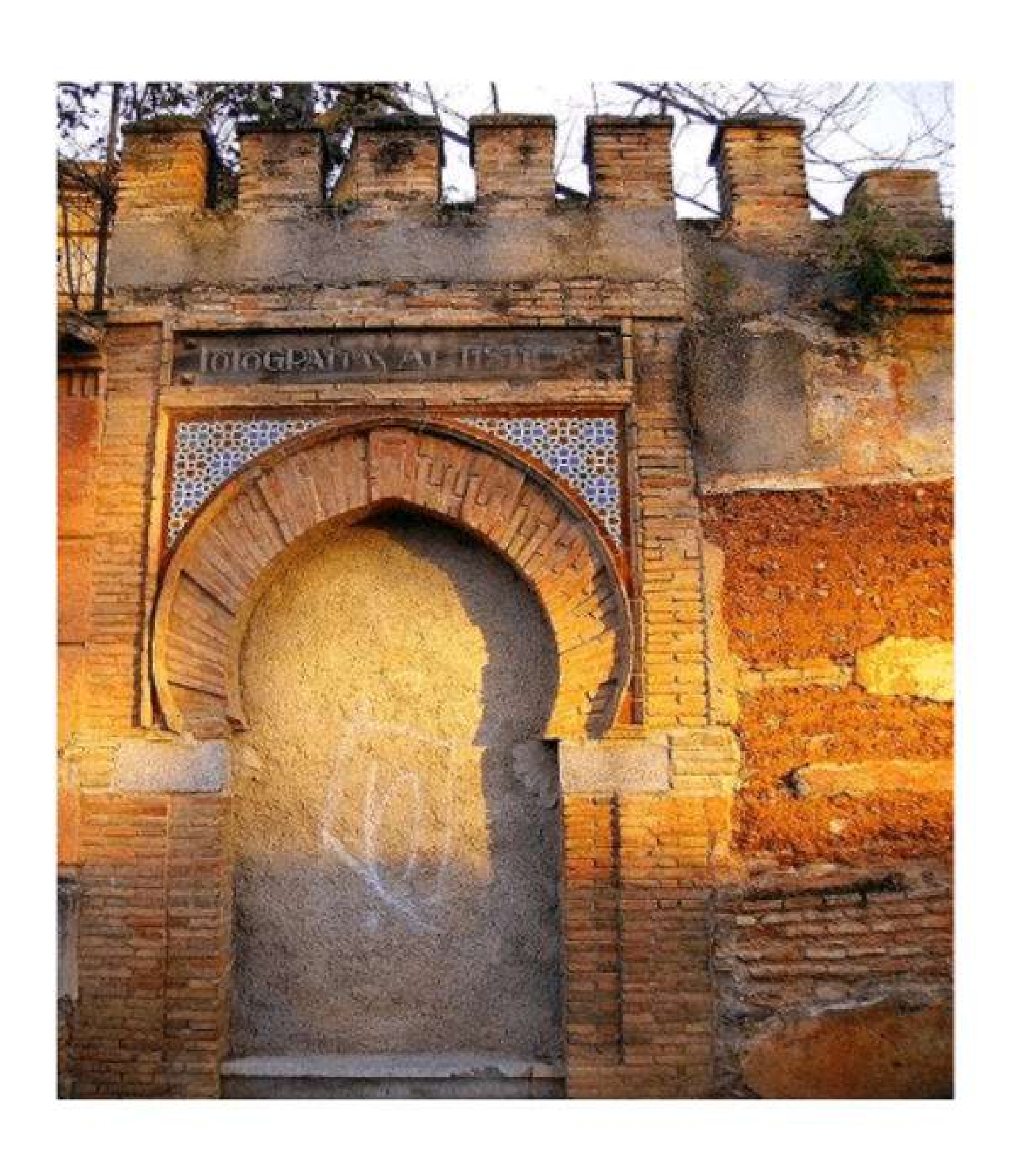
هل أصبحنا جميعًا حكماء هذه الأيام؟!

ليت تلك الحكمة تنزلت علينا منذ فترة لكانت الأحوال تغيرت، ولم نصل إلى تلك اللحظة.



اليوم الثالث

أحد أبواب غرناطة القديمة



لم أره منذ زمن طويل صديقى خالد بن زيدون فتوجهت ناحية منزله، كان اللقاء فاترًا فالأيام الخوالي لن تعود مجددًا,كان الصمت هو حديثنا إلا من كلمات قلائل كنا ننطق بها بين الحين والآخر، كان حماس ابن زيدون قد انطفأ وخبت جذوته مع مرور الزمن وانكسار الحماس في قلوب الناس، فلماذا يبقى في قلبه؟

كان يود لو أنه يقدر على القتال والحرب، لكنه كان مقعدًا منذ الصغر، لكن الله منحه موهبة الكلام وحسن البيان فكان خطيبًا لا يشق له غبار، أما الآن فكل جميل في غرناطة.. قد ذهبت أيامه.

طال الصمت وعجزت الألسنة عن النطق، كنا نضع عيوننا في الأرض، كنا نخاف أن تلتقي النظرات فنرى فيها انكسار غرناطة.

استأذنت في الانصراف فلم يرد عليّ كأنه يريد أن يقول شيئًا

قمت من مكاني متجهًا صوب البابِ، فاستوقفني صوته قائلًا:

قادة الجند وأعيان غرناطة باعوا أملاكهم واستعدوا للرحيل.

كنت قد سمعت بعض هذا الكلام لكني لم أصدقه إلا حين سمعته من ابن زيدون، لكني رغم ذلك رددت قائلًا:

لن يسمح أبو عبد الله بحدوث ذلك وسوف يعاقب من باعوا أملاكهم ووطنهم للقشتاليين.

من المعروف عن ابن زيدون رصانته وحكمته، لا أذكر أني رأيته يومًا يضحك بطريقة ساخرة أو ما شابه، لكني حين أسمعته الجملة الأخيرة ذهب في حالة شديدة من الضحك حتى ظننت أنه سيغمى عليه من أثره.

غاظني الأمر فسألته في غضب:

ما المضحك في كلامي؟!

هدأ قليلًا ثم قال بصوت يقطر حزنًا ومرارة:

يا أحمق! لقد كان أبو عبد الله أول من باع، أتعرف حديقة العصام التي يملكها؟! لقد وكل وزيره أبى القاسم في بيعها، ولقد باعها الوزير وقبض الثمن، ولقد قام باقي الوزراء -مثل أبي القاسم وابن كماشة- ببيع كل ممتلكاتهم وقبضوا أثمانها.

كان وقع المفاجأة عنيفًا، فأصابني بالدهشة والذهول فلم أجد كلامًا يقال، فأتبع ابن زيدون كلامه قائلًا بصوته المتهدج من أثر البكاء:

لقد أخذوا ذهبهم وفضتهم وسيغادرون، فكيف نحصل نحن على حقوقنا هنا؟!

حقوقهم كانت ذهبًا وفضة لذلك كان من السهل أخذها لكن كيف نأخذ نحن تاريخنا وتراثنا ودماء أجدادنا؟

لم أجد كلامًا يقال فنظرت إليه في صمت، فأكمل كلامه قائلًا: لو كان المجد والشرف يباعان، فهل تعرف ثمنهما؟!!

غادرت المنزل بسرعة،لم أكن أريد أن أسمع المزيد، لكن رغمًا عني وصلتني كلماته وهو يقول:

إنها الدماء، إذا بذلْتَ دمك فقد صُنتَ مجدك وعزك حتى لو قتلت وانتصر عدوك، فالدم لا يعرف أبدًا الهزيمةَ، وسينهض من جديد ليستعيد مجده وعزه، أما إذا سلمت مجدك بنفسك وتنازلت عنه فقد مات كل شيء.

أخذت كلماته تتردد في رأسي كأنها تطاردني أينما ذهبت، أخذت أحدث نفسي وأنا أسير في شوارع غرناطة كيف هان على هؤلاء أن يبيعوها بأبخس الأثمان؟!

(أمثال هؤلاء لا يستحقون حتى الحياة، أي مكان سيرحلون إليه يجب أن يلفظهم بعيدًا، فكما باعوا غرناطة سوف يبيعون أي بلد آخر).

هكذا قال لي شيخ المسجد وهو يبكي عندما سمع الخبر!

((لقد اعتدنا البكاء هذه الأيام، ليتنا كنا نحسن صنع شيءٍ آخر بدلًا منه)).



اليوم الرابع

قصر الحمراء في غرناطة





كانت شمس الظهيرة قوية هذا اليوم، دائمًا كانت شمس غرناطة قوية، لكن الآن يبدو أن شمس الإسلام بدأت في الأفول، أخذت أنظر إلى الشمس وأنا أتامل شعاعها, كنت أريد أن أحتفظ بأكبر كم منها داخلي، ربما لا أراها بعد اليوم.

هل كنت أتخيل ما أراه، أم أن الشمس بالفعل كانت تبكي غرناطة..

غرناطة..

سيبكي عليها كل شيء!

وسينعيها كل شيء!

أخذت أمر في الشوارع، وأنا أحدق النظر في بيوت غرناطة وأتأملها. كانت جميلة وعظيمة وآية في الفن والبناء، لم تكن تضاهيها بيوت في أي مكان آخر حتى في حزنها، لا أعتقد أن هناك بيوت تشعر بالحزن مثلها كانت جدرانها تهمس إلى بعضها وتنفس عن أتراحها وآلامها، حتى أني شعرت أنْ لو كان لها صوت لصرخت من هول ما يحدث، كان المطر يتساقط خفيفًا في تلك اللحظة كأن السماء تبكي على غرناطة، أو علها أرادت أن تمسح الحزن المكسو على جدران البيوت الحزينة، كان المطر يمتزج بالتراب فتنبعث منه رائحة جميلة، منذ صغري أعشقها وما زلت، وتثير في نفسي الشجن والذكريات. كانت الأرض تحدثنا

ونحدثها ونحتمي بها من قسوة الزمن وتمنحنا خيرها وشبابها، حتى جاء يوم بخلنا عليها بدمائنا، فقاطعتنا إلى الأبد.

في ذلك الصباح وصلنا خبر ما حدث بين أبي عبد الله ورسل الملوك الكاثوليك وأنهم عرضوا عليه تسليم غرناطة مقابل أمانه وأمان الغرناطيين.

لا أدرى أيّ أمان يقصدون؟ أمان بلنسية، أم أمان طليطلة، أم أمان قرطبة، أم غيرها من المدن الإسلامية؟! فكل من سلموا مدينتهم ذبحوا ونهبت أموالهم، واستبيحت نساؤهم!

قالها لى رجل وأنا جالس أنظر إلى شعاع الشمس، وانصرف مسرعًا بدون أن ينتظر مني ردًا.

مثل هذا الرجل كثروا الآن في غرناطة وأخذوا يتجولون في شوارعها يدعون الناس إلى الصمود والمقاومة وعدم الرضوخ للنصارى.

فجيوش سلطان مصر وجيوش سلطان العدوة قادمين لنجدتنا ورفع الكرب عنا، فهم لن يرضوا بضياع آخر معقل للمسلمين في الأندلس.

الأندلس!

يا له من اسم ظلمناه معنا،كم وقفنا ضد الأندلس من أجل مصالح خاصة!

إن من ضيع الأندلس هم أبناؤها، لقد سلم ملوك الطوائف قلاعًا ومدنًا للنصارى أكثر مما حصل عليه النصارى من الحروب والقتال.

كم هـــانت علينا أندلسُـــــــــنا!

كان أهل غرناطة يرسمون آمالًا عريضة، إنهم سيستيقظون يومًا من نومهم فيجدوا جيوش المسلمين قد أحاطت بهم وفكت عنهم الحصار، ويستعيدون ما فقدوا من الأندلس، لكنه كان حلمًا بعيد المنال.

فسلطان مصر وسلطان العدوة شغلتهما أمورهما الداخلية عن إرسال نجدة لنا، لم أكن أدري أيُّ أمور داخلية تمنع من نصرة غرناطة؟

حتى العثمانيين شغلتهم غزواتهم الأوروبية وتوسعاتهم عن إنقاذنا.

هل كان الأولى فتح بلد جديد للمسلمين أم حماية بلدٍ إسلاميٍّ عريقٍ شارفتْ شمس الإسلام فيه على الأفول؟!

لو شغل العثمانيون أنفسهم قليلًا بالأندلس لما ضاع ملك الإسلام فيه.

وقع بصري على حقول غرناطة والمحاصيل التي لم تجمع بعد، حتى أن أصحابها نسوا أن لهم حقول.

أذكر عندما كنت صغيرًا، كنت أرتع مع أبي إلى حقول غرناطة، أقطف البرتقال وعناقيد العنب، كنت أرتع مع الأطفال في ربيع الحصاد على ضوء قمر غرناطة، كنا صغارًا، لكن الوطن كان كبيرًا، أكبر من كل

شيء في هذا الكون، وطننا كان أكبر وأحلى من كل الأوطان، وطننا كان غرناطة، وهل في الأوطان مثل غرناطة؟

ولدنا صغارًا، لكننا لم نكن مثل باقي الصغار في الأوطان الأخرى، لقد ولدنا على آهات غرناطة وهى تحتضر، ورأينا أفئدة الصغار تنفرط حزنًا على حمراء غرناطةِ, كنا صغارًا ولم نكن نملك شيئًا سوى أحلامِنا ومرت السنوات وكبرنا، لكننا لم نمتلك أيضًا سوى أحلامنا، كنا نشعر أن هذا هو قدرنا المحتوم، لا سبيل للتراجع عنه أو الفرار منه، فقد كتب في المسطور أن تؤول غرناطة إلى ما آلت اليه باقي الأندلس.

الآن يبدو أن غرناطة ستغرق في الظلام لمدًى لا يعلمه إلا الله،

أخذت أتجول في شوارع غرناطة التي اكتست بالحزن هذه الأيام، كأني أراها للمرة الأولى وربما تكون الأخيرة!

هل سأرى تلك البيوت مرة أخرى؟!

هل سأسمع الآذان في جنبات غرناطة؟!

هل سيتردد فيها قول (لا إله إلا الله)؟!

غلبتني مشاعري فانهمرت في بكاء عنيف، في تلك اللحظه تمنيت لو أني قد مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا!

لم أدرك كم هو مريح الموت إلا في تلك اللحظة. إنها لحظة الضياع!

صدقت والله العجوز (سنتمنّى الموت فلا نجده)!!

اليوم الأخير

صورة لأبي عبد الله بن الأحمر

يسلم غرناطة لملوك الكاثوليك





استيقظت فزعًا من نومي على أصوات صراخ وعويل تتردد في جنبات غرناطة، فخرجت مسرعًا لأستطلع الأمر، فكان وقع الخبر عليَّ كالصاعقة، لقد وقَّعَ أبو عبد الله على وثيقة تسليم غرناطة!

عمَّ الصراخ والبكاء المدينة، وأخذنا نتدافع حتى وصلنا إلى الساحة الكبرى، كان أهالي غرناطة قد احتشدوا في الساحة حتى الأطفال كانوا موجودين، كأنهم يشهدون لحظة ضياع غرناطة!

كانت أعين الجميع مملوءة بالدموع، والوجوه يعلوها الأسى، وعلت الأصوات بالصراخ والاعتراض على ما فعله أبو عبد الله، الكل كان رافضًا لذلك التسليم المهين.

لم أدرِ لماذا صمتنا كل هذه المدة، وتحركت نفوسنا بالثورة في تلك اللحظة؟!

حينها تذكرت مقولة موسى بن أبي الغسان: من لم يقاتل اليوم لن يقاتل أبدًا !

بدأت الدعوات إلى حمل السلاح والدفاع عن غرناطة حتى الموت، وعدم الرضوخ لأبي عبد الله ووزرائه، أخذنا نجوب شوارع غرناطة محمسين للناس مطالبين إياهم بالصبر والاستعداد للموت؛ دفاعًا عن غرناطة.

(ليتنا خرجنا مع ابن الغسان قبل ذلك)

قالها لي رجل وهو يعطي ولده الصغير سيفًا ليدافع به عن غرناطة.

أصبحنا جميعًا في حالة تأهب قصوى، فميعاد التسليم الذي أعطاه أبو عبد الله للنصارى بعد شهر من الآن، لذلك خلال هذه المدة سنكون قد حشدنا كل ما نقدر من رجال وعتاد، ذهبت إلى بيتي وارتديت ملابس الحرب، لا أدري لماذا صارت ثقيلة؟! فجأة تحاملت على نفسي وخرجت من بيتي مسرعًا لأنضمَّ إلى باقي الأندلسيين. كان المئات يهرولون وهم يرتدون ملابس كنت أشعر أنها أيضًا ثقيلة مثل ملابسي!

كان الكل يعمل بدون كلل أو ملل وانتشرت رياح الثورة وروح الحماس في ربوع غرناطة.

لكن فيما يبدو أنَّ أوان القتال قد مضى ولم يعد يجدي الآن.

فجأة تعالت أصوات صياح وجلبة ناحية قصر الحمراء مقر حكم أبي عبد الله، فأسرعنا إلى هناك، لكن وقبل أن نقترب لمحنا رايات القشتاليين وقد دخلت غرناطة متجهةً صوب الحمراء، وأتانا الخبر المفجع أن أبا عبد الله لما أحس بالثورة داخل غرناطة وأن الأندلسيين لن يرضوا بالتسليم، أسرع وأخبر فرناندو وإيسابيل اللذَين أسرعا في الدخول إلى غرناطة بدون أن ينتظرا المهلة التي اتفقا عليها؛ خوفًا من عدم قدرتهم على إخماد ثورة الغرناطيين.

لم نكن ندري ماذا نفعل، فبتلك الحركه القذرة ضاعت كل أحلامنا في المقاومة والثورة وخبت في نفوسنا كل عزيمة، أسرعت بمفردي ناحية

القصر لأنظر ما يجري ،كان وفد الملوك الكاثوليك قد وصل إلى هناك وبدأ في تسلم القصر من حراسه الأندلسيين، الذين انهمروا في بكاء حار وهم يعطون مفاتيح تاريخهم ومجدهم لأعدائهم بأيديهم. أخذت أراقب المشهد عن كثب وعيني تقطر دمًا فقد نفدت منها الدموع.

بعد لحظات صعد أحد الجنود القشتاليين إلى برج الحراسة العالي، وهناك رفع صليبًا فضيًّا!

لقد كان ذلك إيذانًا بانتهاء الحرب الصليبية على مسلمي الأندلس وإيذانًا بانتهاء حكم المسلمين وذهاب دولتهم.

لم أكن أصدق ما أراه أمامي فحتى البكاء والعويل لايجديان في تلك اللحظة, لقد صدق الصبي حين قال:

أخشى ألا أسمع الآذان في غرناطة مرة أخرى.

كانت كتائب النصارى قد انتشرت في باقي ربوع غرناطة وتسلمت مفاتيح أبوابها, ووضع كل منا سيفه في منزله والتزم البكاء.

بدأت تجوب الشوارع رسل الملوك الكاثوليك وهي تطمئن الناس على أرواحهم وأموالهم ومساجدهم وأنها لن تمس المسلمين ولا دينهم بأي أذى، لكن لم يصدق أحد ذلك.

فقد سمع أهل قرطبة وبلنسية وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس مثل هذه الترّهات، قبل ذلك ولم ينفذ منها شيء.

في تلك اللحظة تذكرت ابن زيدون فأسرعت الخطى نحو منزله فوجدت الباب مفتوحا كعادته، أخذت أنادي عليه لكني لم أسمع منه جوابًا، دخلت إلى حجرته فوجدته نائمًا على سريره اقتربت منه لأوقظه، لكن ابن زيدون لم يستجب لي، لقد رحل عن غرناطة وعن الدنيا كلها وعلى وجنتيه جفت دموع كان يذرفها طوال الليل، لقد أبى ابن زيدون أن يعيش حتى يرى هذا اليوم، ليتني كنت مكانه واسترحت. عدت إلى منزلي والدموع تنهمر من عينيَّ، كنت أبكي وأنتحب مثل النساء, حينها تلاشت أمام عينيَّ كل الفوارق بين الرجال والنساء.

قبيل الفجر بقليل خرجت من منزلي لأشاهد فجر غرناطة الحزين. كانت الشوارع خالية تمامًا لا أثر فيها لأي إنسان، لكن فجأة سمعت أصوات قادمة من بعيد فاختبأت بسرعة لأشاهد القادمين، اعتقدت أنهم بعض الجنود القشتاليين يجوبون الشوارع, لكن الأمر كان مفاجأة بالنسبة لي. كان موكب أبي عبد الله بن الأحمر يغادر غرناطة بل الأندلس كلها، كان الموكب حزينًا وكئيبًا وقد علا الحزن والأسى وجوه الجميع.

أخذتُ أتتبع الموكب حتى خرج من غرناطة مقبلًا نحو منفاه الجديد حاملا معه ذهبه وفضته وأمواله كما أخبرني ابن زيدون.

عند ربوة مرتفعة وقف أبو عبد الله ليشاهد الشمس وهي تشرق على غرناطة, لكن هذه المرة لم تكن تحت حكم المسلمين لقد ذهبت عنها شمس الإسلام وإلى الأبد.

أخذ أبى عبد الله في البكاء وعلا نحيبه، و على مقربة منه كانت عائشة الحرة -أمّه- تركب جوادها العربي، فصاحت فيه بصوت عالٍ سَمِعَه كلُّ مَن في المكان:

(ابكِ كالنساءِ.. مُلْكًا لم تحافظ عليه كالرجال)

آهٍ لو كان يجدي البكاء في تلك اللحظة،

لقد استيقظنا أخيرًا من سباتنا، لكن بعد فوات الأوان!

عدت إلى بيتي وكتبت كل ما حدث في الأيام الأخيرة وأودعته في منزلي، علَّه يكون عبرة وعظة لِمَن يأتي بعدنا.

تمت كتابته في المحرم 879 هـ الموافق 1491م.



الفصـل الـثانـي

بداية (علي بدية)



بعيون تملؤها الدموع وقلب يكسوه الأسى أنهيت ترجمة الكتاب كما بدأته.

كان الحزن يعتصرني كلما قرأت الفجيعة التي حدثت للمسلمين.

كان أمرًا شاقًا عليَّ، فما قمت به عمل خطير هو أن أنقل للناس مأساة المسلمين.

كان اليوم هو الأحد، لذلك يجب على أن أنزل مبكرًا استعدادا للقُدّاس، كانت الكنيسة ممتلئة عن آخرها، فمنذ بدْءِ محاكم التفتيش لم يتأخر أحد عن حضور القداس خوفًا من اتهامه بأنه موريسكي أو مهرطق.

أخذت أدور بعينى في الحاضرين أتفرس وجوههم،كنت أود أن أسألهم:

أفيكم موريسكي آخر؟

لا زلت أذكر كيف كنا ندخل هذا المكان وقلوبنا تقطر حزنًا وألمًا،كنا ننطق بما يقولون وقلوبنا تنطق بكلمة التوحيد, كنا نتبادل النظرات ونسلم بها على بعضنا البعض حتى الهمس كان محرمًا علينا.

لم أدرِ متى بدأ القداس ومتى انتهى، لكن فجأة شعرت بيدٍ تمسك كتفي بقوة وصاحبها يقول لي:

ماذا بك بدية؟! أحوالك لم تعدْ تعجبني، أهناك شيئا لا أعرفه؟

كادتْ الدماء أن تتجمد في عروقي من الرعب، كان السائل هو الكردينال (خمينس) رئيس محكمة التفتيش.

كان مجرد ذكر اسمه كفيلًا بإصابة الموريسكيين بالهلع والذعر، فما بالك لو رأيته أمامك؟ مع أني تعودت علي رؤيته طوال السنوات الماضية، إلا أني ما زلت أصاب بالهلع والخوف كلما رأيته، رددت في سرعة وأنا أتلعثم في الكلام قائلًا:

(لا شيء ياسيدي أنا في خير حال).

نظر إلي متشككًا، وتكاد عيناه أن تخترقا رأسي، وقال في صوت عميق:

بدية.. أنت تنحدر من سلاله نجسة، خانت الرب، لذلك يجب أن تثبت أنك مخلص للرب وللكنيسة.

كدت أن أسقط من الرعب وأنا أسمع هذه الكلمات، لكني تمالكت نفسي وأنا أقول في خوف واضح: أبلَغَكَ شيءٌ سيِّءٌ عني يا سيدي؟!

نظر إلي في صمت طويل كدت أن أتجمد خلاله من الرعب ثم قال:

أنت رجل مخلص للرب يا بدية، أتمنى أن تظل هكذا دائمًا.

صمتَ مرة أخرى ثم أردفَ قائلًا وهو يتفحصني بعينيه جيدًا:

هل علمت خبر مقتلِ الكافر دون دييجو؟!

كان يقصد بكلامه الشيخ عمر, فأومأتُ برأسي قائلًا:

نعم، لقد بلغني مقتل ذلك المهرطق الكافر، لقد أراحنا الرب من شروره.

هزَّ الكاردينال رأسه في غضب، واحتقن وجهه بشدة وهو يقول:

لقد خدعنا طوال سنوات عديدة ذلك الكافر، وكان يستخدم أحد منازله كمسجد للموريسكيين.

أومأت برأسي له كأني أصدق على كلامه، فقال لي بصوت هادئ:

اذهب بدية، حفظك الرب!

كدتُ أن أسجد شكرًا لله على نجاتي من يد هذا السفاح، وعلى الفور صعدت إلى حجرتي وأخرجت كتاب أبي الحسن الغرناطي وأشعلت فيه النيران، لقد أتممت ترجمته، لذلك لا داعي لوجود النص العربى، يكفي النص الموريسكي.

أخذت أنظر إلى بقايا الورق المتفحم، كنت أرى من خلال الدخان المتصاعد كل ما مضى من حياتي يمرُّ أمام عيني،كانت آلامي وأحزاني تُرسم أمامي في تلك اللحظة، وأخذتني الذكريات بعيدًا بعيدًا إلى بداية حياتي، وأول لقاء لي بالشيخ عمر، أخذتْ الذكريات تطوف بي إلى البداية، وكيف كان أبي رحمه الله يعلمني العربية، فقد أطلعني والدي على الإسلام وأنا ابن ستة أعوام، كنت في تلك الفترة أذهب إلى مكتب النصارى لأتعلم المسيحية واللغة القشتالية، ثم أرجع إلى بيتي فيعلمني

أبي الإسلام، كان يمسك بلوح خشبي،كأنى أنظر إليه الآن، فيكتب لي حروف الهجاء بالقشتالية، ثم يسألني عن كل حرف فأسميه له فيكتب لي حرفًا عربيًّا ويقول لي: هذه حروفُنا حتى أتمَّ لى جميع الحروف.

وفي تلك الفترة أوصاني أن أكتم ذلك الأمر حتى عن والدتي وعمي وأخي وكل أقاربنا، بل عن الناس كافة وشدَّدَ عليَّ في ذلك، حتى أن والدتي كانت تسألني:

ما الذي يعلمك والدك؟

فأقول لها: لا شيء، كذا كان يفعل عمي وأخي الأكبر وأنا لا أخبرهم بشيء.

وأخذ أبي يعلمني الوضوء والصلاة وبعض تعاليم الإسلام حتى مضت فترة طويلة تأكد أبي أني لا أخبر أحدًا عن ذلك، حينها أمرني أن أتحدث مع والدتي وعمي وأخي، وأخبرني أنهم مثلي على دين الإسلام.

وفي إحدى الليالى أخذنى أبي وسار بى في شوارع غرناطة وأمرني أن أغمض عينيَّ حتى لا أعرف الطريق، كان يخشى إذا وقعتُ في يد محكمة التفتيش أن أعترف لهم بالمكان الذي نلتقي فيه.

وبعد مدة من السير في شوارع غرناطة وصلنا إلى أحد المنازل وأنا ما زلت مغمض العينَينِ، فطرق أبي البابَ ثلاثَ طرْقاتٍ متتالية، وبعدها

بفتره قصيرة طرق الباب طرقة واحدة، كانت هذه هى العلامة على أن الطارق موريسكي، دخلنا المنزل وأمرني أبي أن أفتح عينَيَّ.

كان بداخل المنزل تسعة رجالٍ جلسوا ملتفين حول رجل وقور تبدو عليه ملامح الهدوء والسكينة.

أشار الرجل إليّ أن آتي وأجلس بجواره، بينما جلس أبي بجوار الباقين،كان الرجل يحدثنا عن الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله وأننا من الذين قال عنهم الرسول: إنهم قابضون على دينهم كالقابض على الجمر، وأن الله سوف يجازينا أحسن الجزاء على صبرنا وتحملنا المشاق.

لم أسمع في حياتي كلمات مثل هذه فأصغيت إلى الرجل بكل جوارحي، وعلى الرغم من صغر سني فقد استوعبت كل ما قاله.

فيما بعد عرفت أن هذا الرجل يسمى الشيخ عمر وهو معلم الموريسكيين وإمامهم.

فرغ الشيخ عمر من حديثه ثم التفتَ إليّ وابتسم قائلًا:

مرحبا بك في المسجد يا (علي).

قلت له في سرعة:

اسمي خوسيه.

ابتسم الشيخ في وجهي وهو يقول:



هذا اسمك النصراني، أما اسمك العربي فإنه (علي).

كان للاسم وقع جميل في نفسي، أخذ الشيخ عمر يحدثي أن علي هذا، كان اسم ابن عم رسول الله ×، وكان صغيرًا مثلي، وقد أطلعه النبي ×، على دعوة الإسلام في بدايتها وائتمنه على حفظ سرها، وكيف أنه نام في فراش النبي ليلةَ الهجرة..

وأشياء أخرى كثيرة...

وكان هذا أول لقاء بيني وبين الشيخ عمر......

تجددت اللقاءات بيننا فيما بعد، حتى أصبحت أتوق إلى الوقت الذي أجالس فيه الشيخ عمر وأستمع إلى حديثه الساحر.

بعد فترة أصبح كل شيء بالنسبة لي، بعد مقتل عائلتي على يد محاكم التفتيش البربرية, لا زلت أذكر كيف قامت قوات المحكمة باقتحام البيت وإلقاء القبض على عائلتي بأكملها، حينها حاول أبي أن يدفع التهمة عن العائلة، وأخذ يصيح بأنه نصراني صالح، ولا شأن له بالموريسكيين.

ضحك قائد المجموعة قائلًا: لقد كشف أمرك يابدية أم تحب أن أناديك باسم إبراهيم؟

كان هذا هو اسم أبي العربي حينها أيقن أبي أن كل شيء قد عرف.

وأمام المحققين لم ينكروا شيئًا، واعترفوا بأنهم مسلمون أبًا عن جدٌّ، وأنهم قد تنصروا مجبرين تحت وطأة وقسوة محكمة التفتيش، لكنهم لم يكونوا نصارى في يوم من الأيام.

ذهل القاضي مما سمع،كان يعتقد أن عائلتي ستنكر التهمة أو تحاول أن تبرئ نفسها.

لكن منذ متى تبرِّئ محاكم التفتيش أحدًا,كل همها ينصبُّ على مصادرة أموال الموريسكيين وقتلهم.

نظر القاضي وهو يقول لوالدي:

والطفل الصغير هل هو نصراني أم مسلم؟

في ذلك الوقت كنت أبلغ تسعة أعوام.

رد أبي في ثقة شديدة:

إنه ما يزال صغيرًا، وكنت أخشى أن أطلعه على الأمر فيُفْشي سرَّنا.

نظر إليَّ القاضي في شكٍّ واضحٍ، وهو يقول: سنعرف ذلك.



الحفلات الخاصة

بحرق الموريسكيين





طوال أربع ساعات من التحقيق معي بواسطة محققي المحكمة.. لم يكتشفوا أيَّ شيءٍ مريبٍ غير أني مسيحي ملتزم، وأحافظ على واجبات الكنيسة ولم أكن أعلم شيئًا مما تصنعه عائلتي.

جاء حكم المحكمة بحرق عائلتي وضمي إلى الكنيسة الكبرى لأمكث فيها وأتعلم دين النصارى.

على مدى أربعة أيام خضعت العائلة لتعذيبٍ وحشيٍّ على أيدى محققي المحكمة لكي يستخلصوا منهم أي معلومات عن باقى الموريسكيين، لكن لم ينطقوا بشيء.

وفي يوم تنفيذ الحكم امتلئت الساحة عن بكرة أبيها بالذين جاؤوا لمشاهدة الكفار الذين خانوا الرب.

قالها لي قسيس كبير وأنا أشاهد عائلتي يسحبها الجلاد حتى دائرة النار.

كنت قد رأيت هذا المشهد مئات المرات على مدى سنوات عمري الصغيرة، فكم من الموريسكيين حرقوا هنا، لكن هذه المرة.. الذين سيحرقون هم أهلي.

كانت الجموع البربريّة تزأر بكل قوة طالبة من عائلتي الصراخ والتوسل وطلب الرحمة.

كان صراخ الموريسكيين وتوسلهم.. أكبر لذة يحصل عليها هؤلاء البرابرة.

لم أسمع أيَّ صرخات منهم أو طلبًا للرحمة، حتى بعد أن قام الجلاد بربطهم في العمود الخشبى استعدادًا لحرقهم بالنار، خيم صمتٌ رهيب على المكان واحتبست الأنفاس في الصدور منتظرة سماع صرخاتهم، لكن لم ينطق أيٌّ واحدٍ منهم بكلمة أو يصدر عنه أيٌّ شعور بالألم، كل ما سمعته هو صوت أبي وهو يقول:

(لا غالب إلا الله، هو الحيُّ الذي لا يموت).



التعذيب في محكمة التفتيش





في تلك اللحظة تذكرت ما حكاه لي الشيخ عمر عن نبي الله إبراهيم وكيف أن قومه ألقوه في النار لكن الله أمر النار ألا تحرقه أو تؤذيه.

كانت رؤية النيران وهى تلتهم عائلتي منظرًا أعجز عن وصفه أو حكايته، كل ما استطعت فعله هو الصراخ بكل قوة حتى خارت قواى وفقدت وعيي وسقطتُ في يد ذلك الرجل الذي أمسك بى قبل أن أقتحم النيران.

لم يفارقني هذا المشهد أبدًا، فطوال تلك السنوات كنت أراه كلَّ يوم في منامي وأرى النيران وهي تلتهم أجسادهم.

كان مقر إقامتي في كنيسة سان سبستيان التي كانت في زمن المسلمين هى المسجد الكبير في غرناطة وبعد السقوط حولها القشتاليون إلى كنيسة، كان المسجد غاية في الروعة، تحفة معمارية وآية في فن الزخرفة الإسلامية التي برع فيها الأندلسيين، وكان لزخرفة المسجد وروعته أثر كبير حتى في نفوس القشتاليين النصارى فقاموا بطمس الآيات القرآنية، ووضع صليب بدل المئذنة، وتركوا باقي الزخارف كما هي، كنت أشعر بالحزن العميق كلما تذكرت أن في هذا المكان الذي تدق فيه النواقيس الآن، كان المؤذن يصدع بكلمة التوحيد والإسلام.

حتى الصور التي وضعها القشتاليون داخل الكنيسة كانت تذكرني بمأساة الأندلس فعلى إحدى الجوانب علقت صورة كبير لأبي عبد الله

الأحمر وهو يسلم مفاتيح غرناطة لفرناندو وايسابيل وعلى جانب آخر صورة توضح عدد من النساء المسلمات مرتديات الحجاب وقد وقفن أمام أحد القساوسة وهو يرش عليهن الماء المقدس ويقوم بتعميدهن.

كل ما في هذا المكان كان يثير الشجن ويبعث على البكاء!

كان لعائلتي تاريخٌ حافل مع المساجدِ فأصل عائلتي من طليطلة، وعند سقوطها في يد النصارى عام **1084** منذ قرون كان جدي الأكبر شيخًا لمسجدِ طليطلة وعندما أراد الفونسو السادس تحويل المسجد إلى كنيسة أرسل الجنود إلى المسجد ودخلوا على جدي وهو جالس وأمامه أحد طلابه يقرأ القرآن وكلما توقف عن القراءة أمره جدى بالمواصلة, ولم يجرؤ أحد من الجنود أن يخرج جدي من المسجد بالقوة، بل كانوا يشيرون إليه بالانصراف، حتى فرغ تلميذه من القراءة، فقام وصلَّى الصلاة الأخيرة في مسجد طليطلة، وسكب عبراته على أرضيته، وخرج من المسجد، ليحوله الجنود إلى كنيسة طليطلة.

عندها أخذ جدي العائلة وجاء بها إلى غرناطة واستقر بها.

كانت حياتي في الكنيسة رتيبة للغاية كنت أتلقى تعاليم المسيحية في النهار, وفي الليل آوي إلى حجرة صغيرة أعلى الكنيسة، كانت هي مقر إقامتي، فإذا خيم الظلام وعمَّ السكون بدأت أراجع ما أحفظه من القرآن وأحاديث الرسول، كان أكثر ما أخشاه أن أنسى ما أحفظه فتنقطع صلتي بالإسلام كما حدث مع كثيرين.

مضى على وجودي هنا في الكنيسة عامٌ كاملٌ، كنت تحت مراقبة شديدة من محكمة التفتيش.

كنت أشعر بهم يراقبونني..

يتتبعون خطواتي..

يحاصرون أفكاري..

يتحيّنون فرصة السقوط..

لينقضّوا على فريسة جديدة..

ناشبين فيها أنياب الحقد والكراهية..

لكني لم أمنحهم تلك الفرصة قطُّ..

هل جربتَ أن تعيش حياتك وأنت متخفٍّ خلف شخصية أخرى؟! وأن تظهر خلاف ما تضمر في صدرك؟!

حتى في أحلامي كنت أخشى أن أتفوه بكلمة الإسلام، بل حتى أي كلمة عربية! كانت كلماتي محسوبة عليَّ، لذلك كانت قليلة جدًا وفي أضيق الحدود.

كنت أراهم كل يومٍ أمامي في الكنيسة يرتدون زى الدين, يأكلون, يشربون, يضحكون.. حتى تكاد تعتقد أنهم بشر مثلك!

حتى يقتلوا بدماء باردة.. ويزهقون أرواحًا بريئة.. بلا جريرة! عندما تراهم يهدمون مصنوع الله، وينهون حياته بكلمة منهم توقن حينها أنهم ليسوا بشر، حتى إنِ اتخذوا هيئة البشر!

كانت عيونهم مصوبة عليَّ، حتى كدت أشعر أنهم يقرؤون أفكاري، مرت الأيام وأنا على تلك الحال.

حتى تأكدوا أني منغمس حتى النخاع في النصرانية، فبدأتُ ألاحظ أن عيونهم بدأت تبتعد عني تدريجيًا.

حتى كان ذلك اليوم الذي تغير فيه كل شيء!

في أحد أيام الآحاد وقبل القداس بقليل شاهدته أمامي وجهًا لوجهٍ،كان الشيخ عمر في الكنيسة ينظر إلي من بعيد، كدت أن أصرخ فرحًا وأجري نحوه محتضنًا إياه بدون أن أشعر لكن أوقفتني نظرة من عينَيه مفادها أن تماسك.

ظل يحدق في وجهي لفترة طويلة ثم أشار لي أن أتبعه فتبعته من بعيد حتى لا يراني أحد، كان يصعد سلالم الكنيسة ويتجول في أرجائها كأنه يعرفها عن ظهر قلب،حتى توقف أمام حجرة صغيرة وطرق الباب ثلاث طرقات متتالية ثم طرقة رابعة بعد فترة قصيرة.

كانت تلك هي نفس الإشارة التي كنا نستخدمها عند ذهابنا إلى المسجد.

فتح الباب قس كبير في السن ودخل الشيخ عمر وأشار إليَّ بالدخول، وأغلق القس وراءنا الباب بسرعة.

كنت في غاية القلق مما يحدث فالقس ربما يبلغ عنا محكمة التفتيش، لكن الشيخ عمر أجاب على الشكوك التي تدور في رأسي بسرعة قائلًا:

(لا تخفْ، فالقس كاميلو معنا أو إن شيءت نادِهِ باسمه الموريسكي "قاسم").

زادت دهشتي فقد رأيت هذا القس مرات عديدة ولم يحدثني على الإطلاق في أيِّ شيء، أو يبدو عليه أنه موريسكي.

هدأت بعد سماعي تلك الكلمات، وارتميت في أحضان الشيخ عمر وأنا أبكي من شدة الفرح، كنت أشعر براحة وطمأنينة بمجرد رؤيته، أخذ يهدأ من روعي ويطمئن على أحوالي فرويت له كل ما حدث منذ إلقاء القبض على عائلتي حتى دخولي الكنيسة وبقائي فيها.

أخبرني أنه كان يعرف كل ما يدور هنا عن طريق القس كاميلو, فسألته في دهشة: ولماذا لم يخبرني بذلك؟

رد على الشيخ عمر في رقة وهو يقول:

لقد كنت تحت مراقبة شديدة من محاكم التفتيش، وكنا نريدك أن تبدو طبيعيًّا تمامًا، فإذا عرَّفناك شيئًا عن كاميلو كان من الممكن أن يُكشف أمركما.

فتح الباب قس كبير في السن ودخل الشيخ عمر وأشار إليَّ بالدخول، وأغلق القس وراءنا الباب بسرعة.

كنت في غاية القلق مما يحدث فالقس ربما يبلغ عنا محكمة التفتيش، لكن الشيخ عمر أجاب على الشكوك التي تدور في رأسي بسرعة قائلًا:

(لا تخفْ، فالقس كاميلو معنا أو إن شيءت نادِهِ باسمه الموريسكي "قاسم").

زادت دهشتي فقد رأيت هذا القس مرات عديدة ولم يحدثني على الإطلاق في أيِّ شيء، أو يبدو عليه أنه موريسكي.

هدأت بعد سماعي تلك الكلمات، وارتميت في أحضان الشيخ عمر وأنا أبكي من شدة الفرح، كنت أشعر براحة وطمأنينة بمجرد رؤيته، أخذ يهدأ من روعي ويطمئن على أحوالي فرويت له كل ما حدث منذ إلقاء القبض على عائلتي حتى دخولي الكنيسة وبقائي فيها.

أخبرني أنه كان يعرف كل ما يدور هنا عن طريق القس كاميلو, فسألته في دهشة: ولماذا لم يخبرني بذلك؟

رد على الشيخ عمر في رقة وهو يقول:

لقد كنت تحت مراقبة شديدة من محاكم التفتيش، وكنا نريدك أن تبدو طبيعيًا تمامًا، فإذا عرَّفناك شيئًا عن كاميلو كان من الممكن أن يُكشف أمركما.

نظرت الى كاميلو كأني أراه للمرة الأولى، فقال الشيخ عمر: أتدرى يا عليٌّ أنكما متشابهان؟



صورة لكنيسة سان سبستيان

التي كان يقيم فيها (علي بدية)





نظرت إلى الشيخ عمر باستغراب، فأتبع قائلًا:

كاميلو يقيم هنا منذ عشرة أعوام انتقل من بلنسية إلى هنا وهو مسلم مثل آبائه وهو أيضًا آخر عائلته مثلك تمامًا.

تبادلتُ أنا وكاميلو النظرات بدون أن نتكلم واكتفينا بابتسامة على وجهينا كانت كافية عن أيِّ كلامٍ يُقالُ.

كان كاميلو رجلًا مسنًّا ناهز السبعين من عمره أو أكثر، أحنت السنين ظهره ويبدو عليه عناء الزمن، لكن ومن نظرات عينيه تشعر أنه يمتلك روح قوية.

نظر الشيخ عمر إلي وهو يقول:

لقد كان كاميلو وسيلة الاتصال بالموريسكيين، كنا نرسل إليه الأوراق والتعليمات ويسلمها هو للموريسكيين الذين يأتون إلى الكنيسة، بتلك الطريقه لن يشكَّ أحدٌ فيهم نهائيًّا.

كان حديث الشيخ عمر محزنًا مليئًا بالشجن قاسيًا على النفس، فالأحداث التي طرأت على غرناطة في السنوات الأخيرة من تناقص أعداد الموريسكيين، ومن زيادة سطوة محكمة التفتيش التي أصبحت تقتات على دماء الموريسكيين.

تنهد الشيخ عمر وهو ينظر إليَّ في رقة شديدة شعرت، وكأن أبي ينظر إليَّ من خلال عيونه تلك.

صمتَ قليلًا ثم أردفَ قائلًا:

هناك أمرٌ مهمٌّ أريد أن أطلعك عليه

أومأت اليه برأسي، وأصغيت إليه.

فألقى على مسامعي ما أصابني بالخوف والقلق:

- لقد كبر كاميلو ولم يعد قادرًا على القيام بمهمته لذلك نحن نبحث عن شخصٍ يحلُّ مكانَه، قالها الشيخ عمر وهو يحدق في عينيَّ.

أمعن النظر في وجهي وهو يكمل قائلًا:

شخصٌ يحوز على ثقة محكمة التفتيش، ويكون بعيدًا عن الشبهات..

سكت قليلًا ثم أطلق المفاجأة مدوية في وجهي..

نحن نحتاجك هنا يا (عليُّ).

نظرت إلى الشيخ عمر في دهشةٍ، فقد ألجمت المفاجأة لساني، فأكمل كلامه:

أعلم أن الأمر صعب وخطير لكن نظرتي ونظرة أبيك لن تخيب فيك يا (علي).

إن إيمانك بالله وحبك للإسلام يفوقانِ سنك بكثير، إنك لست صبيًّا في العاشرة من عمره، وإنما أنت تحمل أثقالًا وهمومًا، لا يقدر على حملها أشدُّ الرجال صلابة، لقد أوصلك إيمانك بالله لهذه المرحلة يا بنيَّ.

إن دخولك الكنيسة ومكوثك فيها كان لسبب لا يعلمه إلا الله، الآن اتضحت لنا الحكمة الربانية في أن تكون أنت حلقة الوصل بين الموريسكيين ودينهم.

نظرت إليه مليًّا، وأنا أفكر في الأمر، فعلى الرغم من خوفي الشديد من محكمة التفتيش إلا أن هذه المهمة الملقاة على عاتقي لا مناص منها، فعليها يتوقف إسلام الموريسكيين في إسبانيا وتنقطع صلتهم بالإسلام.

إنها مهمة محفوفة بالمخاطر يا (علي) قالها الشيخ عمر وهو يربت على كتفي.

لم يطل التفكير كثيرًا فلا يوجد أحد غيري ليحمل على كاهله تلك المهمة.

كان الشيخ عمر في شدة الفرح وأنا أخبره بالموافقة وتهللت أساريره بشدة.

أخذ الشيخ (عمر) في إعطائي التعليمات التي سأسير عليها، وكيف أن كل الأوراق ستأتيني مكتوبة بالخميادو حتى إذا وقعت في يد النصارى لن يفهموا منها شيء، ثم أخبرني أن الرسائل سوف تأتيني مع امرأتين، هما: مسلمة أبدة، ومسلمة أبلة[1].

سألته في دهشة: وكيف سأعرفهما؟

(1) أبدة وأبلة اسما مدينتين في إسبانيا.

نظر إليَّ مبتسمًا، وقال: أنت تعرفهم جيدًا يا (عليٌّ) وعندما تراهم ستعرفهم.

انتهى اللقاء بسرعة ونزل الشيخ (عمر) إلى بهو الكنيسة، وأنا من بعده حتى لا يرانا أحد معًا.

من بعيد شاهدته قد وقف يتبادل أطراف الحديث مع بعض الرجال، وفجأة سمعت رجل بجانبي يشير إليه، وهو يقول لصاحبه: (الدون دييجو) رجلٌ غنيٌّ وذو نفوذ وله علاقات واسعة بالبلاط الملكي، إنه يغيب كثيرًا ويظهر فجأة لسفره الكثير خلف أعماله.

لقد كانت تلك وسيلة الشيخ (عمر) في إخفاء هويته الحقيقية، فالكل يعتقد أنه رجل نصراني مخلص له علاقات كثيرة وأعمال مختلفة مما يضطره للسفر كثيرًا خارج غرناطة، فكان يتجول في أنحاء الأندلس لمقابلة الموريسكيين.

- (إنه مثلك من سلالة نجسة).

سمعت الكلمة فالتفتُّ إلى قائلها فكان الكردينال (خمينس) رئيس محكمة التفتيش, نظرت إليه في ذعر واضح، فأكمل كلامه وهو يشير إلى الشيخ (عمر):

لكنه أثبت أنه ليس مثل أجداده وآبائه لقد قدم ولائه للرب والكنيسة إنه رجل سخي ويقدم الكثير من التبرعات والخدمات لبيوت الرب.

دقق الكردينال النظر إلى وجهي وهو يقول:

أتمنى أن تصبح مثله يا (بدية).

أنهى الكردينال كلامه معي وانصرف في طريقه تاركًا الافكار تعصف برأسي.

مضى شهر بدون أن أرى الشيخ (عمر) أو تظهر حتى (مسلمة أبدة) أو (مسلمة أبلة), حتى مللت الانتظار.

وفي أحد الأيام وجدتها تنظر إليَّ، كانت امرأة في حوالي الأربعينيات من عمرها، ترتدي ملابس النصرانيات الإسبانيات،لم يكن يبدو عليها أي شيء مريب بالنسبة لهم، أما أنا فقد رأيت ما لم يره أحد سواي، إنه الإسلام، كنت أرى بداخلها ما أراه بداخلي، كانت تضمر الإسلام مثلي وتتظاهر بالنصرانية، كان في عينيها بريق لا يمكن أن تخطئه عين موريسكي، إحساس لن يشعر به سوى الموريسكيين.

ابتسمت لي واقتربت مني في بطء، وناولتني رغيف خبزٍ، أخذته منها برفق وشكرْتها كأنها امرأة تُعطي صدقةً لراهبٍ يخدم في بيت الرب.

أخفيتُ رغيف الخبز في ملابسي، وأخذْتُ أتجوّلُ في الكنيسة بعض الوقت، وبعد ذلك صعدت إلى حجرتي مباشرةً، وهناك قمت بفتح الخبز.

كان بداخله ورقة صغيرة مكتوبة بالخميادو، كنت قد تعلمتها في صغري على يد أبي،كانت الرسالة تحتوى على بعض الآيات القرآنية

وحديث للنبي،كان مطلوبًا مني أن أعطي هذه الرسالة للدون (مندخار) أحد الموريسكيين ليقوم هو الآخر بنقلها إلى باقي إخوانه.

وفي آخر الورقة كتب فيها أن حاملة الرسالة هي مسلمة أبدة وسوف تأتي إلى هنا كل فترة لإعطائي رسائل الشيخ عمر، كتب لي أيضًا في الرسالة أن ألتزم الحرص التام، وألا أظهر أي تعاطف أو شفقة نحو الموريسكيين، أمام رجال المحكمة بل يجب أن أكون شديد الحدة والغلظة وأنا أتحدث عنهم.

انتظرت حتى الأحد التالي، وقبل القداس ظهر دون مندخار وتقدم إلى أحد المقاعد وجلس عليها استعدادًا لبدءِ القداس وتعمد وضع حقيبة على المقعد الخلفي حتى لا يجلس عليه أحد تظاهرتُ أنا بالتجوُّلِ بين المقاعد حتى وصلت إلى الحقيبة، وبسرعة أخرجت الورق من بين طيات ملابسي وألقيتُه في الحقيبة وانصرفت بسرعة، بدون أن يراني أحد، حتى الدون مندخار، كان يجب عليَّ أن تبقى شخصيتي مجهولة حتى لباقي الموريسكيين، فإذا سقط أحدهم لا يفشي سرى تحتَ وطأةِ التعذيب الوحشيِّ.

توالت الرسائل بعد ذلك ورأيت المرأة الأخرى (مسلمة أبلة) التي لم تكن تختلف كثيرًا عن صديقتها.

كانت الرسائل تشرح لي المأساة التي يعاني منها الموريسكيين بالخارج من تناقص أعدادهم بشكل كبير بسبب عمليات القتل والتنصير التي ينفذها النصارى ضدهم.

كانت مسلمة أبلة كما قال لي الشيخ عمر عالمة بأمور الفقة الإسلامي, متمكنة منه, كانت تلك العلوم بالنسبة لي شيئًا مجهولًا لم أسبر أغواره قبل ذلك، وأموره الفقهية كانت تشغل بالي وتثير قلقي، وفي إحدى المرات طلبت منها معرفة بعض الأمور الفقهية.

نظرت إليَّ في رقة وهي تقول:

لا تشغل بالك بكل هذه الأمور، فالإسلام أسهل وأيسر من ذلك.

ألححت عليها في الطلب فوعدتني بإحضار بعض الأوراق التي سوف تريح بالي في كثير من الأمور.

لكنها أتبعت قائلة: لا ترهق نفسك كثيرًا يا بنيَّ؛ فالأمر أهون من ذلك.

ظللْتُ مدة طويلة في شوق ولهفة لما سوف تحضره، وفي اليوم الذي جاءت فيه بالأوراق أعجز تمامًا عن وصف السعادة التي تملكتني، أخذتُ الأوراق منها في لهفةٍ واضحة، وتحينْتُ أول فرصة وصعدت بسرعة إلى حجرتي.

فضضت اللفافة برفقٍ، وبنهم شديد بدأتُ في القراءة..

كانت الأوراق عبارة عن رسالة أرسلها أحد شيوخ المغرب إلى المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة وقيام النصارى بالتضييق على المسلمين وإجبارهم على الدخول في النصرانية، فسارع الشيخ بإرسال الرسالة ليشرح للمسلمين فيها بعض الأمور الفقهية التي تساعدهم على أداء شعائر الإسلام بدون تعريض حياتهم للخطر.

كانت الرسالة تحتوى على كثير من المسائل الفقهية التي تشغل بالي وتشعرني بالقلق، كحكم أكل لحم الخنزير، وأداء الصلوات الكنسية وتلاوة الإنجيل.

كانت رسالة الشيخ المغربي تحمل في طياتها ألمًا وحزنًا على حال المسلمين في الأندلس حتى أنه لقبنا فيها بالغرباء.

كان وقع الكلمة له تأثير يلامس أوتار القلب.

فكم نحن غرباء بالفعل، ليس لنا هنا إلا الله، أذكر أن الشيخ عمر حدثني ذات مرة أن باقي مسلمي العالم لا يدرون عنا شيئًا حتى أنهم لا يعرفون بوجودنا الآن.

حتى لو عرفوا.. فهل سيغير ذلك من وضعنا شيئًا.

لقد رأونا ونحن نسقط قبل ذلك فهل حرَّك أحدهم ساكنًا؟!

هل هم المذنبون في ما وصلنا إليه؟!

أم أننا نحن المذنبون؟!

أم أن النصارى هم المذنبون؟!

أم أن محمكة التفتيش هي المذنبة، فهي التي قهرت اليهود والمسلمين بل حتى قهرت بعض الطوائف المسيحية.

كم هو قاسٍ الظلم حين يكون باسم الرب!

مع مرور الوقت أصبحت أعرف كل الموريسكيين المتواجدين بغرناطة، ففي كل قداس كنت أراهم يؤدون القداس وسرعان ما ينصرفوا إلى منازلهم ليؤدوا الصلاة، ويبكون طالبين من الله الرحمة والمغفرة.

أكثر من سبع سنوات مضت عليَّ، وأنا على تلك الحالة، حتى جاء يوم قابلت فيه الكردينال (خمينس) في بهو الكنيسة، يومها نظر إلىّ في غضب وهو يقول:

بدية.. لماذا لا تحضر الحفلات التي نُقيمُها؟!

أصابتني كلماته بالذعر الشديد حتى إن قلبي كاد أن يخر من بين ضلوعي, فآخر حفلة حضرتها هى التي حرقت فيها عائلتي، كانت محاكم التفتيش تطلق على المحارق والمذابح الجماعية اسمَ الحفلة؛ احتفالا منهم بما يفعلوه، كانت تلك الحفلات تقام عقب إلقاء القبض على الموريسكيين، فكانوا يُساقون إلى الساحة الكبيرة في حضور القساوسة والرهبان والإسبان النصارى لمشاهدة حرق المهرطقين الكفار، كما

كانوا يسموننا.

لم أدرِ ماذا أقول ردًّا على الكردينال خمينس، كل ما استطعت قوله هو أنّي لم أجد وقتًا مناسبًا للحضور.

نظر متشككًا في كلامي وهو يقول: هل ما زلت تشعر بالشفقة أو العطف نحو هؤلاء؟!

رددتُ بسرعةٍ بالنفي، وأُخبرته أني لا أكره أحدًا في العالم أكثر منهم.

ابتسم لي في خبث وهو يقول:

حسنًا بدية.. لقد منحك الرب اليوم منحة لحضور إحدى الحفلات، فمنذ فترة لم تقم بذلك. واليوم ستذهب إلى الساحة الكبرى لمشاهدتها.

لا أدري مما خلق هذا الرجل، لو كان قلبه من صخر لانفطر حزنًا وألـمًا على ما يفعله بالموريسكيين، لكن مثل هذا الشيطان لا قلب ولا عقل له, الشيطان هو من يحركه.

كان وجه الكردينال صلبًا وقاسيًا، دائما ما كان كذلك، كان الناظر اليه يعتقد أن قسوة قلبة وصلابته قد حلَّتْ على وجهه وأصبحتْ سمةً له.

لا أدرى كيف سأحتمل المشهد، كنت أتهرب قبل ذلك من الذهاب متحججًا بأيِّ أعذار، لكن اليوم سأذهب مجبرًا.

كانت الساحة مملوءةً عن آخرها، الكل ينتظر رؤية الكفار والمهرطقين، كانت قد مرت ثلاث سنوات لم يعثروا فيها على أيِّ موريسكي حتى ظنوا

أنهم قد انتهوا، لذلك فهم اليوم في أشد الفرح لرؤيتهم تلك الحفلات مجددًا.

لحظات حتى فتح باب الساحة، ودخل الجلاد وهو يمسك بموريسكى مكبلًا في الأغلال، وقد وضع غطاء كبير على رأسه كي لا تبدو ملامحه، حتى وصل إلى منتصف الساحة ليراه الجميع، رفع الغطاء عن رأس الموريسكي فتعالت صيحات الفرح من النصارى وتعالت صيحتي معهم من شدة الحزن والرعب الذي تملكني.

لقد غرس القدر سكينَ الهلع في قلبي!

في تلك اللحظة..

التي اختفى فيها صوتي وسط صرخات الفرح التي أطلقها البرابرة..

كنت أصرخ بجنونٍ طالبًا منهم أن يتركوها ويأخذوني مكانها, كانت (مسلمةُ أبدة) هي التي ستحرق اليوم..

كان يبدو عليها آثار تعذيب بشع، فيبدو أنها خضعت لاستجواب وحشيٍّ لمعرفة أيِّ معلوماتٍ عن باقي الموريسكيين، لكنها لم تخبرهم بأيِّ شيءٍ، لو كان ذلك لكنت هناك الآن مع الشيخ عمر نحترق معًا.

في تلك اللحظة انطلق لساني يلهج بالدعاء يا إلهي الرحيم لقد بلغ الشرُّ مداه ولا عائذَ لنا ولا حاميَ سواك.

من بعيدٍ لمحتُ على وجهها ابتسامة خفيفة، كانت تحرك شفتيها وهى

تنطق ببعض الكلمات، كانت تنطق بالشهادتين كما فعلت عائلتي، لم أحتمل المنظر والجلاد يسوقها ناحية النيران والأصوات البربرية الهمجية تتعالى مطالبة بحرقها، حينها شعرت بأن حرارة جسدي ترتفع بشكل رهيب وأن أطرافي أصبحت عاجزة تمامًا عن الحركة، وتجمدت الكلمات في حلقي، كان المشهد رهيبًا بحقٍّ حتى أن أعظم الكتاب لا يقدر على وصفه، فجأة انقطعت الأصوات عني تمامًا، واختفى المشهد كله من أمامي فلم أعد أرى سوى (مسلمة أبدة) والغريبُ أني سمعتها تنطق الشهادتين والجلاد يلقي بها في النيران فلم أحتمل المنظر وفقدت وعيي، ولم أدرِ ما حدث بعدها.

لا أدري كم مر عليَّ من الوقت لكني فجأة استيقظت لأجد نفسي في حجرتي في الكنيسة، وبجانبي أحد الرهبان، الذي أخبرني أنه حدث تدافع بين الناس مما أدى إلى سقوطي وغيابي عن الوعي، ثم أردف قائلًا في حسرة:

لقد فاتتك رؤية تلك الكافرة وهي تحترق، حتى وهي تموت رفضت أن ترجع عن دينها أوتدلي بأي اعتراف عن الموريسكيين, لا أدري من أين أتت تلك المرأة بقوة الاحتمال الرهيبه تلك يا بدية؟

قالها وانصرف مغادرًا حجرتي، وهو يلعن كل الموريسكيين.

ما إن أغلق باب الحجرة حتى انخرطت في بكاء عميق حزنًا على مسلمة أبدة، لا أذكر أني بكيتُ من قبل بهذا الشكل، كنت أرى في

وجهها، وجهَ أمي، وملامحَها، عندما كنت أراها وهى تأتي إليَّ بالرسائل، كنت أشعر أن الله أبدلني إياها بأمي، لذلك أحببتُها مثلما أحببتُ أمى، عزائى الوحيد أنهما سوف يلتقيان في الجنة، وستخبرها عني، وستطلب منها أن تدعو الله ليرحمني مما أنا فيه.

كم هي قاسية تلك الحياة، تعطي قليلًا لكنها تأخذ الكثير والكثير جدًا.

أوقات السعادة والفرح، لا تساوي شيئًا بجانب أوقات التعاسة والشقاء، هكذا الحياة تمضي بنا كيف شاءت، وإلى أين شاءت، مقدورنا أن نسير فيها حتى نصل إلى النهاية.

لكن أملنا -نحن الموريسكيين- يتعلق بما بعد النهاية.

كلمات قالها لي الشيخ عمر تذكرتها في تلك اللحظة لكني لم أفهم أبدًا معناها.

بعد مقتل (مسلمة أبدة) بثلاثة أيام جائتني رسالة من الشيخ عمر مع (مسلمة أبلة)، كان الحزن باديًا بجلاءٍ في عينيها، كانت شاحبة الوجة ممتقعة اللون، كانت في شدة الحزن على صديقتها ورفيقة دربها، عندما نظرت إلى عينيها أدركت أنها لن تحيا كثيرًا بعد (مسلمة أبدة) فقد كانتا كروح واحدة في جسدين، وقد رحلت إحداهما، وتوشك أن تلحق بها الأخرى.

وقد كان، فما هي الا أيام قليلة حتى سقطت مسلمة أبلة صريعة

المرض، وأنشب القدر أنياب الحزن والمرارة في قلبها، فلم يتركها حتى فارقت الحياة.

بعد مقتل عائلتي ظننت أني لن أصاب بمصيبة أو حزن بقدر ما عانيته من فراقهم، لكن في تلك اللحظة ملأ الحزن كياني كله واستحوذ عليَّ حتى ظننتُ أني لم أخلق إلا لأحزن.

حتى أتحول إلى نبعٍ من الحزن كفيلٍ بإصابة العالم كله بالشقاء والكآبة.



الفصل الثالث

رؤيا



أصبحت الرسائل تأتيني مباشرة من الشيخ (عمر) الذي بدأ يأتي إلى الكنيسة كثيرًا لكي نلتقي سرًّا.

أخبرني أن الوضع بالخارج أصبح رهيبًا وأن أعداد الموريسكيين أصبحت تعد على أصابع اليد الواحدة.

لاحظتُ أن الشيخ عمر بدأ يتخلى عن حذره الشديد،كان يمضي الوقت الكبير في البحث عن الموريسكيين في كافة أنحاء الأندلس،كان همه الأكبر ألا تنطفئ شعلة الإسلام في الأندلس.

بدأت بعض الشكوك تحوم حُوَيله، وتكاثرت حوله الشائعات في الكنيسة، أخبرته بذلك لكنه لم يكترث للأمر، فأيقنت أن ساعته قد حانت، ولم تطل.

لم يمض أكثر من أربعة شهور حتى عثرت محاكم التفتيش على مسجد الشيخ عمر وبداخله ثمانية من الموريسكيين وهم يصلون وكان تنفيذ الحكم في الحال؛ إذ أحرق كل من في المسجد وهم يصلون، وكانت نهاية فاجعة للموريسكيين الذين لم يتبقَّ منهم أحدٌ سواي.

والقس (كاميلو).......

مرت أيام عديدة كان الحزن جليسي ومؤنس وحدتي، حتى كان يوما بلغ فيه الحزن مداه...

في ذلك اليوم كنت مكتئبًا بشدة، أخذت أتجول في الكنيسة كعادتي،

حتى وقعت عيني على كاميلو، كان يجلس في أحد أركان الكنيسة ومعه قسيس آخر يبدو أنهما كانا يتناقشان في أمر من الأمور الداخلية للكنيسة، انتظرت حتى فرغ كاميلو من حديثه مع القسيس وانصرف.

فتوجهت ناحية كاميلو وسحبت كرسيًا وجلست أمامه، أخذت أنظر إلى وجهه بدون أن أتحدث، شعرت أنه يشعر بما يجيش داخلي، فنظر إليَّ في رقة واضحة، وهو يقول:

لا تحزن يا (علي) فكل ما نعانيه هو أمر مقدر من الله.

نظرت إليه في حزن شديد وأنا أقول : ولماذا يقدر الله علينا الشقاء؟!

ابتسم وهو يقول: مقدور الله لا يأتي إلا بالخير، فما أدراك أن ما نحن فيه شر, قد يكون خيرًا وأنت لا تدرى.

أصابني الذهول من كلامه فرددت عليه في حدة:

أي خير ونحن نعاني كل ألوان العذاب؟! أي خير وقد شاهدت بعيني مصرع عائلتي, وأحب الناس إلى قلبي؟!

لم أكن أدري ماذا أقول لكنني أخرجت كل ما كان يجيش بداخلي وأطلقته كله في وجهه، وبعدها انهمرت في بكاء عنيف.

انتظر كاميلو حتى فرغت من كلامي وعلى الرغم من الغلظة والحدة التي كنت أتكلم بها، فإنه نظر إلي في حنان وهو يقول:

- أما زلت مسلمًا بدية؟

استغربت سؤاله بشدة، لكنني أجبته: نعم، وأنت تعلم ذلك.

أمعن النظر في وجهي وهو يقول: إذن أنت في خير.

أصابتني الدهشة من كلامه فأخذت أنظر إلى وجهه، فأكمل قائلًا:

إن موت عائلتك على الإسلام خير، وكل ما نعانيه في سبيل ديننا هو خير يا علي.

صمت قليلًا ثم قال: الحياة لا معنى لها إذا حصلت فيها على كل شيء وفقدت دينك, كل شيء في هذه الحياة سوف يفنى ولن يبقى إلا دينك.

إن الدين هو مفتاح الحياة عندما تمسك به أجدادنا ملكوا كل شيء, وعندما تركوه فقدوا كل شيء، ونحن نستكمل مسيرتهم يا بني، إما أن نستمسك بالمفتاح فنبني مجدًا جديدًا وإما أن نتركه فنضيع كما ضاع من قبلنا.

يجب أن نظل محافظين على إيماننا ويقيننا في أن موعود الله قادم لا محالة.

إن الإيمان بالله هو النور الذي يقودنا عبر ظلمات الحياة، بدون ذلك الإيمان سوف نضل الطريق ونسقط في ظلمات لا يعلم مداها إلا الله.

شعرت وكأن كلامته لامس أوتار قلبي، فهدأت قليلًا وأنا أقول:

أيُّ مجد تتحدث عنه؟! إننا نحاول النجاة بأنفسنا فضلًا عن بناء مجدٍ، إننا نعاني ذلًّا واضطهادًا منذ قرون فكيف يمكن أن يعود مجدنا في يومٍ

ما.

صمت قليلًا ثم قال:

الزمن لا مدلول له ولا معنى له، فما الذي تعنيه قرون في عمر الزمن؟! إنها لحظات بالنسبة له، ولحظات أيضًا في عمر الأمم. نظرت إليه في دهشة شديدة فأتبع قائلًا:

إن مجد الإسلام يا (بديه) ينبع من القلب والوجدان إنه مجد الروح في الزمان السرمدي الذي لا ينتهي، لا مجد الحكم والسلطان الزائل، إن مجدنا يكمن في الحفاظ على ديننا يا بني.

في تلك اللحظة.. فهمت ما كان يقصده الشيخ عمر.. في أن أملنا.. يكمن فيما بعد النهاية.

صعدت إلى حجرتي واستلقيت على فراشي محاولًا النوم لكني أفقتُ على صوت أحد الرهبان يناديني طالبًا مني التوجه إلى المطبخ لتناول العشاء، نزلت إلى المطبخ متثاقلًا, لم يكن لديَّ شهية لتناول الطعام لكني نزلت وتظاهرت بتناول الطعام, وبعدها توجهت إلى حجرتي وخلدت إلى النوم، لم يكن من عادتي أن أنام بدون كوابيس وأصوات القتل والتعذيب تطاردني ومنظر محققي محاكم التفتيش وقد علقوا الرجال والنساء وهم يشوون أجسادهم أحياء، لكن في هذا اليوم كان الوضع غريبا, كنت أحلم أني أسير في صحراء جرداء قاحلة، ومع ذلك كنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أسير فيها حتى وصلت إلى بناء وسط الصحراء، أمامه وقف رجل

يرتدى ثياب بيضاء والنور يشع من وجهه كأنه ملاك، ويقول لي: مرحبًا بك في بيت الله الحـــــــــرام.

استيقظت من النوم مسرعًا وأنا أتذكر أن الشيخ عمر حدثني عن فريضة تسمى الحج الأكبر في بلد الرسول، أخذت أتذكر كلمات الشيخ عمر وهو يشرح لي أن هناك شيء يسمى الكعبة وهى بيت الله يطوف حولها المسلمون ويصلون، لقد كانت أمنية الشيخ عمر أن يذهب إلى هناك ويؤدى تلك الفريضة.

إن هذا الحلم هو بشارة من الله أنى سأذهب إلى هناك ولكن كيف.. وأنا ممنوع من مغادرة غرناطة فكيف سأغادر الأندلس كلها؟!

طوال أسابيع أصبح شغلي الشاغل هو التفكير في كيفية الخروج من غرناطة، أصبحت الأفكار تلح على رأسي بشدة، لكن السلطات الأسبانية تمنع كل ذي أصل موريسكي مهما كان شأنه من أن يخرج من الأندلس.

أيام عديدة مرت على وأنا أحاول التغلب على مشاعري وكتمانها بداخلي لكني لم أستطع فعل ذلك كنت حائرًا في البحث عن كثير من الأجوبة التي تشغلني، لكن ما الذي تعنيه الأجوبة في ذلك العالم القاسي؟!

القمع

القتل

العنف

الدماء

مفردات بدأتُ حياتي وأنا أعاني منها وسأظل أعاني حتى مماتي, كنت بحاجة للحديث أكثر مع (كاميلو) فقد كان حديثه قادرًا على إزالة الهم من قلبى، أخذت أبحث عنه حتى وجدته جالسا وحده في الحديقة اندفعت نحوه قائلًا-

- لماذا يفعلون معنا كل هذا؟

تفاجأ (كاميلو) من سؤالي فالتفت إليَّ مندهشًا أخذت أنظر إليه في صمت، فأشار إليَّ بالجلوس على المقعد المجاور له. فجلست والدموع تملأ عيني والحزن يعتصر قلبي.

- إنه الحقد والتعصب يا بني.

نطقها دون أن ينظر إلي، فالتفتُّ أنا إليه فأكمل كلامه قائلًا:

عندما دخل الإسلام الى الأندلس تعايش الجميع في كنف واحد في سلام تام، ولم يظلم أحد بسبب دينه، وأمن النصارى على كنائسهم وعقيدتهم طوال ثمانية قرون هى عمر حكم الإسلام، لم يجبر خلالها نصراني على ترك دينه.

لكن بعد زوال حكمنا، ملك التعصب والحقد قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، أتدري لماذا يا علي؟

لم ينتظر (كاميلو) منّي ردًّا فأتبع قائلًا:

لأنهم لا يقدرون على التسامح مثلنا يا بني، وهذا سبب حقدهم أنهم لا يستطيعون إيجاد تلك الروح بداخلهم. لقد كان حكمنا حكم أمل وحياة، أما حكمهم فحكم فزع ورعب, إنهم ينظرون إلينا نظرة العاجز عما وصلنا إليه، لقد كانت تلك البلاد تحت حكمنا آية في الروعة والجمال والتحضر، لقد نبغنا في كل العلوم الحياتية، وأسسنا أعظم حضارة في التاريخ. أما الآن فانظر إلى حالة إسبانيا[1] التمزق والتفرق يسودها، والجهل يسيطر على عقول من فيها. إن محكمة القهر تلك لن تستمر طويلًا؛ فالقهر لا يمكنه بناء عقيدة أو تأسيس فكرة, إنه فقط قادر على وضعها قسرًا في الأذهان لفترة ولكن تلك الفترة لن تطول.

سألته في صوت خافت: هل حقًّا يفعلون ببعض النصارى مثلنا؟

هز (كاميلو) رأسه بالإيجاب وهو يقول: إن القهر لا يفرق بين دين وآخر، إنهم يقهرون كل من يعارضهم ويخالف معتقدهم حتى لو كان نصرانيًّا مثلما حدث مع (مايكل سرفيتوس).

سألته في فضول: من يكون؟!

أطلق (كاميلو) زفرة حارة وبدأ في قص ما حدث.

- لقد كان ذلك في عام 1553م، كان سرفيتوس طبيبًا إسبانيا عالـمًا متفكرًا في ملكوت الله. عارض الكثير من آراء الكنيسة وأنكر فكرة

(1) في ذلك الوقت كانت إسبانيا في حالة شديدة من التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي وكانت على شفا حرب أهلية.

الثالوث المقدس وأثبت في كتبه للنصارى أن الله واحد أحد وأن عيسى عليه السلام إنما هو بشري ولد بمعجزة وجعله الله نبيًّا.

كانت القصة في غاية المتعة فأصغيت إلى كاميلو بكل حواسي، فأتبع قائلًا:

«بعد ما ذاع صيت سرفيتوس، وأصبح له صوت مسموع، حكمت عليه محكمة التفتيش بأنه مهرطق، وقضت بإعدامه حرقًا.

هرب سرفيتوس إلى فيينا، لكن تم إلقاء القبض عليه هناك، وتم تنفيذ الحكم، فيه لكن الله أعطى سرفيتوس منحة إلهية، ففي يوم تنفيذ الحكم تم ربط سرفيتوس في عمود خشبي وربطوا كتابيه حول وسطه وأشعلوا فيه النيران وتركوها تلتهم جسده، حتى خبت النيران تمامًا، وانتهت وكانت المفاجأة في انتظار الحاضرين، فقد مات سرفيتوس لكن النار لم تأكل جسده ولم تحرق أيَّ شيء فيه أو كتابيه».

كنت أشعر بالذهول مما أسمع! فهذه بالفعل معجزة إلهية حدثت لرجل رفض أن ينصاع لرغبات قهرية دموية.

صورة لمايكل سيرفتوس





مضت أيام عديدة أرهقت فيها من كثرة التفكير حتى كان يوم خلدت فيه للنوم مبكرًا لكن تدافع الأفكار لم يرحمنى حتى أثناء نومي، حتى شعرت أن عقلى يكاد يغادر رأسى فرارًا منها.

كنت أشعر وكأنى في بحار متلاطمة من الهواجس والمخاوف، لم ينقذني منها سوى طرقات سريعة على باب غرفتي، فاسيقظت فزعًا وفتحت الباب بسرعة.

كان الطارق أحد القساوسة وكان يبدو أن هناك أمرًا قد حدث فقد كان وجه الرجل ممتقعَ اللون، وبشدة نظر إلى وجهي وهو يقول بسرعة:

القس كاميلو يريدك حالًا.

صمتُّ قليلًا ثم أتبع قائلًا وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

إنه يحتضر.

قفزت فوق الدرج بسرعة حتى وصلت إلى حجرة كاميلو.

لم يكن هناك أحدٌ غيره، فأشار كاميلو إلى القس بأن ينصرف ويتركنا وحدنا.

كان وجه كاميلو شاحبًا بشدة ويحاكي وجوه الموتى امتقاعًا لكن رغم كل ذلك لمحت نظرة ارتياح تطل من عينيه.

أشار إليّ أن أجلس بجواره على السرير, جلست بجانبه فأمسك بيدى في رفق وهو يقول بصوت ضعيف:

سأغادر الآن يا عليٌّ، سوف ألحق بباقي الموريسكيين.

سقطت الدموع من عيني، وقلبي يكاد يعتصر حزنًا، لقد كان كاميلو آخر من تبقى لى.

لا أدري لماذا كتب عليَّ أن أشهد رحيل أحبتي.

أغمض كاميلو عينيه ثم فتحهما ببطء وهو ينظر إلى قائلًا:

لا تحزن يا بني فسوف ألقاك هناك إن شاء الله.

سألته في دهشة قائلًا:

أين؟!

رد في صوت خافت قائلًا:

عند الكعبة يا بنيّ.

تملَّكتني الدهشة مما أسمع، فكيف عرف كاميلو برؤياي؟! كأنه كان يقرأ أفكاري.

أتبع قائلًا: لقد رأيت مثلك يا (علي).

تساقطت الدموع من عيني وأنا أنظر الى آخر من تبقى لي، فها هو الآن يرحل تاركًا إياي في ظلماتٍ لا يعلم مداها إلا الله.

- ثق في موعود الله يا بنيَّ وتمسك بدينك فسوف ينجيك الله من هنا، سوف أدعو لك يا (علي) وسوف أطلب من جميع الموريسكيين أن يدعوا لك.

قالها وفاضت روحه إلى بارئها. لقد رحل آخر رفقائي في المعاناة حاملًا شكواه إلى الله.



الفصل الرابع

نهاية النهاية



كان الأرق جليسي في تلك الليلة، متشبثًا بي كطفل صغير يخشى أن يفلت من يد أمه فيضل الطريق، كان الجو حارًّا وخانقًا ورطوبة الهواء قادرة على كتم أنفاس البشر في لحظة واحدة.

لا أدري لماذا حدثتني نفسي بالنزول إلى بهو الكنيسة في ذلك التوقيت؟

نزلت الدرج متثاقلًا، حتى وصلت إلى منتصف البهو، وأخذت أتمشى فيه متأملًا ما حولي مستترًا بظلام الليل التي لم تنجح الشموع المضاءة في إزاحته.

إن هذا الظلام شبيه بالظلام الذي خيم على غرناطة الفارق بينهما أن ظلام الليل يرحل مع بزوغ النهار لكن ظلام غرناطة يبدو أنه لن يرحل أبدًا.

من بعيد.. لمحت بصيص ضوء بجانب باب القبو، فاتجهت ناحيته فلم أجد أحدًا غير أني وجدت باب القبو مفتوحًا.

نظرت إلى ما وراء الباب برهبة وخوف، فلم أهبط هذا المكان المرعب سوى مرتين كانوا ينقلون بعض الأوراق إلى أسفل، ويومها طلب مني أحد القساوسة مساعدة العمال في حمل الورق.

يومها سمعتهم يهمسون أن تلك الأوراق تحوي اعترافات الموريسكيين وأوراق التحقيقات.

فيما بعد عرفت أن كل وثائق محكمة التفتيش توضع في مكتبة بالقبو.

نظرت حولى فلم أجد أحدًا غيرى فتشجعت قليلًا وهبطت درج القبو، كان المكان بالأسفل مضاء كأن ألف شمس تشرق فيه، يبدو أن أحدهم أشعل المصابيح.

من بعيد لمحت باب المكتبة ذلك المكان الذي يقشعر جسدك فقط عندما تتخيل ما يحويه.

كان نظام المحكمة يقتضى وجود ثلاثة أقفال على الباب يحمل مفاتيحهم أكبر ثلاثة من محققي المحكمة ولا يمكن فتح الباب إلا في وجودهم.

لكني رأيت ما جعلنى أتسمر مكانى وتنتابني الدهشة، فقد كان باب المكتبة مفتوحًا على مصراعيه.

إذن فالمحققون هنا لأمر ما، اقتربت من الباب بحذر فمجرد كونى في هذا المكان كفيلا بفتح أبواب الجحيم عليَّ.

ناديت بصوت خافت سائلًا عن وجود أحدٍ، لكني لم أتلقَّ جوابًا.

دلفتُ إلى المكان ببطء وأنا أدعو الله ألا يكتشف أحدٌ وجودي.

كان المكان شديدَ الاتساع، عبارة عن رفوف كبيرة اصطفت عليها المجلدات التي تحوى الوثائق.

أخذت أتأمل المجلدات عن بعد، كان كل جزء قد وضع عليه التاريخ

الخاص به مما يسهل على المحققين الرجوع اليه في أي وقت.

شد إنتباهى باب صغير داخل المكتبة كان شِبة مفتوح، كأنه يؤدي إلى مكان آخر.

اقتربت منه في حذر وألقيت نظرةً عَبْرَهُ، فتجمدت الدماء في عروقي.

كان الباب يؤدي إلى سرداب عميق تحت الأرض، تذكرت فقط في تلك اللحظة ذلك المكان حيث تم التحقيق فيه معي ومع عائلتي.

إنه المكان الذي يعذب فيه الموريسكيين وتزهق أرواحهم، إنه سجن المحكمة.

لكن في تلك اللحظة كان خاليًا تمامًا من الموريسكيين.

ولم يكن فيه إلا الكردينال (خمينس) واثنان من المحققين يبدو أنهم كانوا يتناقشون في أمر مهم.

في تلك اللحظة دارت في ذهني فكرة رهيبة، ماذا لو انتهزت فرصة انشغالهم وألقيت نظرة على أوراق التحقيق.

كانت الفكرة في غاية الجنون، لكن من عساه يراني الآن، حتى هؤلاء بالأسفل لو صعد أحدهم فسوف أسمع صوت خطواتهم على الدرج الخشبي، حينها سأسارع بالخروج.

لم أدع الوقت يمر هباءً فبادرت بإنزال المجلد الذي يحوي التحقيقات في العام الذي قتلت فيه عائلتي.

فتحت المجلد بسرعة والعرق يتصبب من جسدي من الرعب والفزع.

أخذت أقلب صفحات المجلد قارئًا أسماء الموريسكيين الذين قتلوا في ذلك العام حتى وقع بصري على الاسم الذي أريده/ عائلة بدية.

انتابت الرعشة جسدي وشعرت أن يديَّ قد عجزتا عن الإمساك بالمجلد، لقد شعرت أني مقبل على لحظة رهيبة.

في البداية ذكرت الوثائق اسم المبلغ عن عائلتي وكانت صدمة رهيبة بالنسبة إليَّ، لقد كانت جارتنا (روساريو).

كانت المفاجأة رهيبة مؤلمة فقد كانت أكثر من صديقة لأمي. ذكرت (روساريو) في بلاغها ضد عائلتي أنها دعتنا لتناول العشاء ووضعت على المائدة لحم خنزير وخمر فلم يقربه أحدٌ منا، حينها لازم الشك قلبها وبدأتْ في مراقبة العائلة حتى تأكدت ظنونها وأبلغت المحكمة التي أولت الأمر اهتمامًا غير عاديٍّ، حتى تأكدت هى الأخرى من إسلام عائلتي، وحدث ما حدث.

لقد بلغ الرعب والفزع من المحكمة أقصى آياته، فحين يبلغ الجار عن جاره ويقدمه فريسة للموت، حينها يرتجف الشيطان نفسه من هول الموقف.

ذكرت الوثائق أن العائلة رفضت الإدلاء بأيِّ معلومات عن باقي الموريسكيين حتى مع التعذيب البشع الذي تعرضوا له، فقد قاموا

بربطهم على طاولات خشبية ودهنوا أقدامهم بشحم الخنزير وبعد ذلك وضعوا مشاعل النار تحت أقدامهم لتزيد من عذابهم، لكن رغم كل ذلك لم تخرج من أفواههم غير كلمة واحدة باللغة العربية لم يفهم محققو المحكمة معناها فكتبوها كما هي: (إلهي أنت ملاذي).

لقد لاذت عائلتي برب السماوات والأرض الذي لا يخذل عباده أبدًا.

كانت باقي الأوراق تحتوي على أصناف التعذيب الذي تعرضت له عائلتي فلم أقدر على استكمال القراءة، وغلبتني دموعى فانهمرت من عيني.

أعدت الكتاب إلى مكانه وخرجت بسرعة من المكتبة صاعدًا إلى حجرتي، وتملكني البكاء حتى الصباح فقط كنت أردد: (إلهي أنت ملاذي).

أخذت أبتهل إلى الله بالدعاء أن يجعل لي مخرجًا مما أنا فيه، ويتغمدني برحمته.

مرت الأيام بطيئة وكئيبة وفي كل يوم تزداد آلامي وأحزاني حتى تمنيت الموت على تلك الحياة القاسية، لكن في أحد الأيام ناداني أحد الرهبان طالبًا مني الذهاب إلى الكردينال خمينس في مكتبه لأنه يريدني في أمر مهم.

أصابنى الخوف من ذلك الطلب، فما الأمر المهم الذي يريدنى فيه؟!

لم يمضِ عليَّ بضعُ دقائقَ حتى كنت في مكتب الكردينال خمينس، كان جالسًا على مكتبه وأمامه بعض الأوراق يطالعها، رفع رأسه ونظر إليَّ في صمت طويلٍ ثم أشار لي بالجلوس، وهو يقول بصوت عميق:

خوسيه.. لقد اختارك الرب لأداء مهمة.

كاد قلبي أن يقفز من بين ضلوعي عند سماعي تلك الكلمة، فأيُّ مهمةٍ يطلبها مني مبعوثُ الشيطانِ هذا؟!!

كل ما استطعتُ قوله هو: أنا دائمًا في خدمة الرب.

نظر إليَّ في ثقة شديدة وهو يقول: هذا ما كنت أنتظره منك، فالأرض الجديدة[1] بحاجة إلى مبشرين، الأعداد التي هناك لم تعد تكفي الوثنيين، لذلك يجب أن نزيد عدد المبشرين هناك.

سألته في دهشة: وما شأني بهذا؟

ردَّ في سرعة: ستذهب إلى هناك.

وقع الخبر علي كالصاعقة، فلزمت الصمت تمامًا لم أكن أدري ماذا أقول.

قطع الكردينال خمينس عليَّ فكري وهو يقول:

يجب أن تكون مستعدًّا للذهاب، السفينة التي ستحملك إلى هناك ستغادر قريبًا،جهز كل ما تحتاجه وأشار إليَّ بالانصراف.لم يكن هناك

(1) لم يحدد علي بدية المقصود من الأرض الجديدة أو يحدد موقعها، قد يكون المقصود منها أمريكا الجنوبية أو الفلبين، وإن كانت الأخيرة هي الأرجح لكونها في ذلك التوقيت مستعمرة إسبانية جديدة.

مناصٌ من قبول المهمة فسواء شئت أم أبيت فسوف أذهب.

(يا رب تولَّ أمري، أعِنّي، إنّي كالحمل وسط قطيع من الذئاب)، قلتها في سرّي وأنا أغادر حجرة الشيطان.

دخلت حجرتي وأخذت في إعداد حقائبي، وقمت بجمع كل أوراق الخميادو لففتها ببعض الأقمشة وقمت بربطها حول وسطي، حتى لا يراها أحد.

بعد أن انتهيت من تجهيز حقائبي قمت بالنزول إلى الكنيسة وأخذت أطوف بها متأملًا فيها، فيبدو أن هذا آخر عهدي بها، خلال طوافي داخلها لم أكن أراها كنيسة، بل كنت أراها المسجد الكبير مسجد غرناطة، ففي هذا المكان كم من علماء وشيوخ المسلمين خطبوا هنا وعلموا الناس الإسلام ونشروا العدل، حتى استدار بهم الزمن فغلبوا من بعد نصر، وذلوا من بعد عز، فشتان بين حكمنا وحكم هؤلاء.

لم أدرِ، كم من الوقت مضى عليَّ وأنا على هذه الحالة، كان الظلام قد خيم وألقى سدوله فصعدت إلى حجرتي، كان الصباح هو موعد رحيلنا فأمضيت الليل كله في بكاء وابتهال إلى الله أن ينجيني مما أنا فيه وينقذني من أيدي هؤلاء.

في الصباحِ جاء الجنود وحملونا في عربات تجرها الخيول حتى ننتقل إلى السفينة التي ستنقلنا إلى الأرض الجديدة.

ركبت إحدى العربات التي لم يكن فيها سواي.

كانت قد مضت على فترة طويلة لم أرَ شوارع غرناطة، لم أشم رائحة ترابها، أخذت الذكريات تراودني، ففي هذا المكان كان لعب الصبا وشغب الأطفال، كم تجولت هنا بصحبة أبي وأمي, هل سأذهب الآن من غرناطة؟! هل سأغادر أرضي.. أرض آبائي وأجدادي؟!!

سلام الله عليك يا غرناطة!

سلام الله عليك يا أندلس!

لم أتمالك نفسي فانهمرت في بكاء عنيف، وعلا بكائي ونحيبي ولولا صوت الخيول وعجلات العربة لَسِمَع من في الشارع بكائي ونحيبي.

لقد كانت البشارة أن أذهب إلى مكة وليس الأرض الجديدة، لكن كل شيء بقدر رب السماوات والأرض, كانت آخر كلمات قالها لي الشيخ عمر:

(إن الله لن يضيعك يا ولدي، لقد رأيتَ من الصعاب وقاسيتَ من الحياة ما لم يقاسِه غيرك، لذلك سوف ترتاح يومًا فلا تقلق أبدًا).

طوال حياتي لم أشعر قطُّ بالقلق، فالقلق يأتي للإنسان المطمئن لكي ينغِّصَ عليه فترة وجيزة من حياته وسرعان ما يغادر، أما أنا فطوال حياتي أشعر بالفزع والرعب، أشعر بالشقاء, كنت أشعر بتقلبات الدهر وقسوته.

كم أنت قاس أيها الدهر! إن سكينك التي تذبح بها باردة كالثلج، شاحبة كصباح شتاء ممطر، جافة كنبتة صبار في صحراء.

قبيل الغروب بقليل انطلقت بنا السفينة تشق عباب البحر، كنا حوالى ثلاثةً وعشرين راهبًا وقسيسًا، غير الجنود والبحارة،كان البحر هادئًا تمامًا وفي غاية السكون.

- يبدو أنها ستكون رحلة هادئة، وممتعة فالرب معنا بكل تأكيد.

قالها لي راهب من طليطلة ونحن على ظهر السفينة نراقب غروب الشمس.

قلت في نفسي: كيف يكون الرب معنا.. ونحن ذاهبون لقهر أناس وتعذيبهم وتنصيرهم بالقوة؟!

حان موعد العَشاء، فتجمع كل من في السفينة ليتناولوا الطعام معًا، جلس بجواري راهبٌ سبق له أن ذهب إلى هناك، أخذ يحكي لنا بكل فخر كيف تمكن من جعل ثلاثين وثنيًّا يدخلون في المسيحية، بعد قيامه بحرْقِ ثلاثةٍ منهم، فسارع باقي العشيرة إلى اعتناق المسيحية.

وهل يرضى الربُ بأن يدخل أحدٌ في دينه مجبرًا.

في تلك اللحظة وبعد سماعي لكلام ذلك الراهب.. دار في خلدي هاجس: ماذا لو فرض المسلمون على الأسبان الدين الإسلامي بعد الفتح مباشرةً، وأجبروهم على اعتناقه والتحدث بالعربية دون سواها؟!

لو حدث ذلك، هل كانت الأندلس ستصل إلى تلك الحالة التي وصلنا إليها؟!

لكن وجدت الإجابة حاضرة في ذهني متوقدة كمصباح زجاجي يزيح عتمة الليل.. وهي أن الإسلام دين تسامح ورحمة وهو دين الاعتناق بكل حرية، فلم ولن يدخل أحدٌ في دين محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- مجبرًا ولا مقهورًا، بل يدخله مبتهجًا أنه قد أصبح من أتباع محمد، وهذا ما حدث معنا منذ دخل أجدادنا الأوائل في الإسلام، ومع كل جيل جديد كانت تصلنا تلك الروح العطرة التي جعلتنا نقبل بالموت ولا نتراجع عن ديننا قيْدَ أنملة.

بعد العَشاء خلد الجميع إلى النوم بعد قضاء يوم مرهق، لكني صعدت إلى ظهر السفينة وأخذت أتأمل النجوم الزاهرة البراقة، فمنذ سنين طويلة لم أخْلُ بنفسي هكذا، بدأت أشعر براحة لا أدري مصدرها.

كان البحر قد بدأ في الهيجان قليلًا مختلفًا عما كان عليه في الصباح، لكنه -رغم شدته وصلابة أمواجه- كان أرق وأرحم من تلك القلوب التي تركتها في غرناطة.

فجأة.. اهتزت السفينة بقوة شديدة، حتى خيل إليَّ أن خشبها سينخلع من مكانه، أخذت أتخبط فوق السفينة التي أصبحت في تلك اللحظة كريشة في مهب الريح، كان الأمر سريعًا، فقد تحول البحر الذي كان كائنًا وديعًا.. إلى وحشٍ كاسرٍ، مُحطمًا كل ما سوف يلاقيه. حاولت أن

أتمسك بشيء يمنعني من السقوط.. لكن البحر ازداد هياجًا بطريقة مرعبة حتى أني رأيت بعض ألواح السفينة تنخلع من مكانها، وفجأة فقدْتُ توازني وسقطت في الماء البارد.

كان السقوط عنيفًا ورهيبًا، امتزج ببرودة الماء الشديدة، فشعرتُ وأن روحي تنسحب من جسدي، أخذت أحاول الصعود إلى سطح الماء لِالْتِقاط أنفاسي، كان الوضع في غاية الصعوبة, لكن في النهاية استطعت الصعود إلى سطح الماء, كانت السفينة قد ابتعدت عني كثيرًا، وأخذت الرياح والأمواج تتلاعب بها بعنف وقسوة كأنها تنتقم من هؤلاء، حتى عجزت السفينة عن المقاومة فانقلبت بمن فيها في الماء البارد.

كان المشهد مهيبًا ومخيفًا ومع ذلك لم أشعر نحوَهم بمثقال ذرة من شفقة أو رحمة.

كان البحر هائجًا بشدة والجوُ مظلمًا والماءُ شديدَ البرودة، لكن رغم ذلك شعرت براحة لم أشعر بها من قبل.كنت أشعر أني الآن أصبحت حرًّا طليقًا حتى لو كانت تلك الحرية في أعماق البحار، فمهما بلغت قسوة البحر.. لن تصل إلي قسوة هؤلاء السفاحين الذين أسلموا أنفسهم إلى الشيطان، فأنساهم الرحمة.

كأني اكتشفت فجأة أني أرتدي ملابس الرهبان، فقمت بخلعها على الفور، والقيت بها في الماء، حينها شعرت أني قد تخلصت من كل همومي، وأني عدت كما ولدتني أمي على فطرة الإسلام.

فجأةً، ألقى الموج أمامي لوحًا خشبيًا من بقايا السفينة فتعلقتُ به بسرعة ورفعت رأسي إلي السماء شاكرًا لله على ما أنا فيه.

أخذت أبتهل إلى الله بالدعاء وأتوسل اليه أن يتغمدني برحمته:

طوالَ عمري أناجيك سرًّا يا إلهي، أما الأن فأنا أناجيك جهرًا، أخذت أرفع صوتي عاليًا بالدعاء إلى الله ومناجاته، وأنا سعيدٌ أني أقول: يا ربّ، يا إلهي, بدون خوف من أحد، اختلطتْ مناجاتي بدموعي التي امتزجت بماء البحر، كأنها تغسل عن جسدي هموم السنوات الماضية.

كانت الأوراق الملفوفة حول وسطي محكمة الربط، لكن رغم ذلك.. كنت أضع يدي عليها؛ لأطمئن على وجودها فهي آخر ما تبقى من تراث الأندلسيين.

لا أدري كم من الوقت مرَّ عليَّ وأنا على هذه الحالة، لكن فجأة.. وجدت نفسي أمام الكعبة، ورأيت عائلتي هناك تقف بجوارها وتشير إليَّ بأن أقبل نحوهم، وعلى مقربة منهم كان الشيخ عمر يصلي ساجدًا للهِ، كما قتلوه وهو يصلي، وهناك رأيت مسلمة أبدة ومسلمة أبلة، قد أخذتا يتبادلان أطراف الحديث.

كان (كاميلو) واقفًا يبتسّم وهو يشير إليَّ، كنت أرى كل الموريسكيين يلتفّون حول الكعبة، أخذت أشير إليهم، كنت أعرفهم كلهم وأحفظ وجوههم، أخذت أجرى نحوهم والدموع تنهمر من عينيَّ، لكن فجأة.. شعرت بيد تضرب وجهي برفق وسمعت صوتًا يقول:

حمدًا لله على سلامتك.

فتحتُ عينيَّ بصعوبة شديدة، كانت الشمس ساطعةً بقوّةٍ فعجزت لفترةٍ عن الرؤية، حتى اعتادت عيناي الضوء. أخذت أتأمل المكان من حولي، كنت على ظهر سفينةٍ يبدو أنهم تجار أو ما شابه.

وجَّه أحدهم حديثه إليَّ قائلًا:

حمدًا لله على سلامتك، من أين أنت؟

لِوهلةٍ اختلطتْ عليَّ الأمور وشعرت بأن رأسي تدور حتى شعرتُ بأني سأفقد الوعى مرة أخرى، فالرجل كان يوجه حديثه إلى باللغة العربية. يا إلهي إنهم عرب!

مِن شدة الدهشة والفرح.. عجز لساني أن ينطق بشيء، فتابع الرجل حديثه وهو يقول:

لقد كنا نمر من هنا ورأيناك متعلِّقًا بلوح خشبي فأنقذناك من الغرق، هل كان معك أحد آخر نبحث عنه؟

نظرت إلى الرجل في امتنان وأجبته بلا،ثم طلبت منه كوب ماء. أحضره لي أحدهم فشربت منه حتى ارتويت، كان كل من على السفينة قد التفوا حولي وكثرت أسئلتهم، وبدأت الريبة والشك تنتاب قلوبهم ناحيتي، فشكلى ولغتى العربيةُ الركيكةُ لا يدلان على أني مسلمٌ أو عربيٌّ، فمنذ زمنٍ طويل وهم يظنون أن كلَّ مسلمي الأندلس قد هلكوا.

أخذتُ أستجمعُ أفكاري وألتقطُ أنفاسي في بطءٍ وقصصْتُ عليهم كُلَّ شيءٍ منذ البداية حتى اللحظة التي أنا فيها معهم، كان الكلام يخرج من لساني فيستريح قلبي وتذهب عنه المعاناة، حتى انتهيت من حكايتي، فانفجر كلٌّ من على السفينة بالبكاء والنحيب؛ حزنًا على الأندلـــــس ومسلميـــــها.

علمتُ من قائد السفينة أنهم تجار مصريّون، وأنهم متجهون الآن إلى مصر ومن هناك سيأخذني إلى سفينة تأخذني إلى مكة.

أحضر الرجلُ لي ملابسَ جديدة فقمت بارتدائها على الفور, وفجأة تذكرت الأوراق الملفوفة حول وسطي، فقمت بفك اللفافة بسرعه لأطمئنَّ على الأوراق، وحمدًا لله كانت بخير، ولم يصبْها الماء بأذًى.

كانت سعادتي لا توصف، وأنا أصلي جماعةً مع هؤلاء البحارة، لا أذكر أني صليت في أمان واطمئنانٍ منذ كنت في التاسعة من عمري في مسجد الشيخ عمر، أما الآن فسأذهب إلى بيت الله وسأصلي هناك في أمان وسكينة, وسأدعو الله أن يرحم هؤلاء الغرباء الذين قبضوا على دينهم كالقابض على الجمر, سأدعو الله وأبتهل إليه بالدعاء أن يجمعنا معًا في جنانه.

أما هؤلاء القساة الذين تركتهم خلفي فأنا أثق في أن الله سيجعل لهم يومًا يذوقون فيه من العذاب صنوفًا وألوانًا كالتي أذاقوها للموريسكيين، إن لنا موعدًا معهم أمام الله يوم يقتص لنا الحكيم الخبير منهم بعدله

وقوته.

***

كان ذلك آخر ما قمت بكتابته في الأوراق الموجودة معين، وقمتُ بوضعها مع أوراق أبي الحسن الغرناطي، علها تصل يومًا إلى المسلمين ليعرفوا كيف عانى إخوانهم في الدين وعذبوا وقتلوا من أجل كلمة لإسلام.

فليرقد الآن كل الموريسكيين في سلام، ولينعموا براحة لم يحصلوا عليها في حياتهم.

رحمة الله عليكم أيها الغرباء.

علي بدية.. الموريسكي الأندلسي.

1807 من ميلاد المسيح عليه السلام.



أنهيت ترجمة ما كتبه علي بدية، بدموع اعتقدت من كثرتها أنها مداد القلم الذي أكتب به، وبحزنٍ عارمٍ اجتاحني حتى شعرت أن أحزان الموريسكيين قاطبةً قد اجتمعت في قلبي.

إن ما تعرض له الموريسكيون هو أكبر مذبحة عرفها العالم، فلم تتعرض أمة لمثل ما تعرض له الموريسكيين من قتل وتنكيل، لكنهم رغم كل ذلك ثبتوا على دينهم وتمسكوا بعقيدتهم.

لم يمنح القدر الموريسكيين اختياراتٍ، فلقد وجدوا أنفسهم في قلب محنة رهيبة, تعايشوا معها وحاولوا تغييرها.

بينما منَحنا القدر اختياراتٍ عديدةً، تاركًا لنا الاختيار، لكننا رغم كل الاختيارات قررنا ألا نختار، وأن ندع الزمن يتلاعب بنا.

لكني في تلك اللحظة أزمعت على وضع الماضي كله خلف ظهري، منتهزًا تلك الحياة الجديدة التي مُنِحْتُ إياها.

راغبًا في تغيير حياتي للأفضل، مهما كان الثمن.

تمت بحمد الله

أحمد أمين

2013/1/13



حقائق تاريخية

ذكر في كتاب (الجزيرة العربية) أن إسبانيًّا يدعى علي بدية قد توجه إلى مكه لأداء فريضة الحج سنة 1807وسجل مشاهداته.

ذكرت قصة موسى بن أبي الغسان في كتاب (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) للدكتور محمد عبد الله عنان، ذكر فيها كلمات موسى التي وردت في الرواية وكيفية مقتله.

ذكرت كتب تاريخية قصة تحويل مسجد طليطلة إلى كنيسة وقد ذكر فيها أن شيخ المسجد كان يسمى الشيخ المغاغي. وقد ورد ذكرها في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لأبي الحسن علي الشنتريني (الجزء الرابع ص131و132).

أما مسلمة أبدة ومسلمة أبلة فقد ورد ذكرهما في كتاب (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) للدكتور محمد عبد الله عنان ص 496 وقد كانتا من علماء الموريسكيين.

ذكر في وثائق محكمة التفتيش أنه تم العثور سنة 1795 على مسجد صغير للموريسكيين كانوا يقيمون فيه الشعائر الإسلامية وتم إحراق المسجد ومن فيه.

وفي عام 1795 عثر في بلدة Agreda على مخطوطة تحتوى عددا من الفقرات بالعربية تتضمن خطبًا وأناشيد نبوية وقصص إسلامية، وقد

وجدت المخطوطة في تجويف بأحد الجدران، والمخطوطة موجودة الآن في مكتبة الأسكوريال في إسبانيا. كتاب (الأندلسيين الموراكة) لعادل سعيد بشتاوي ص 176.



نهاية محكمة التفتيش

لقد كانت فظائع محكمة التفتيش وصمة عار على جبين الإنسانية كلها، فقد تخلوا عن آدميتهم، ووضعوا حجارة بدلًا من قلوبهم ليذيقوا بني جلدتهم صنوفً وألوانًا من العذاب، لا لشيء إلا لمجرد الاختلاف في العقيدة، أو حتى المذهب الديني، لذلك كانت نهاية تلك المحكمة الدموية نهايةً عادلةً نال فيها هؤلاء البرابرة بعضًا مما سوف يلقونه أمام الله في يوم يجتمع فيه الخصوم أمام عالم الغيب والشهادة.

إن أصدق ما كتب عن فظائع المحكمة ما ذكره الضابط ليموتسكي أحد ضباط الحملة الفرنسية التي احتلت إسبانيا في عهد نابليون الذي أصدر مرسوما بحل المحكمة وإيقاف كل أعمالها، فقد رأى هو وجنوده ما يشيب لهوله الولدان من بشاعة وقسوة تلك المحكمة البربرية.

وهذه شهادة الفرنسي كما كتبها في مذكراته الشخصية: «كنت سنة 1809م ملحقًا بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا، وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة، وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسومًا سنة 1808م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية، غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذٍ.

وصمم الرهبان الجزويت أصحاب الديوان الملغى على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقامًا من القرار الصادر، وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين؛ حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

وبينما أسير في إحدى الليالي أجتاز شارعًا يقل المرور فيه من شوارع مدريد.. إذا باثنين مسلحين قد هجما عليَّ؛ يبغيان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعًا شديدًا، ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة، وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح، وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام، فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب، وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش، فأسرعتُ إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النبأ وقال: «لا شك في أن مَنْ يُقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار، لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم، والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع، وهاجم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة».

حدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى دخلوا عَنْوة، ثم يتابع قائلًا: «أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعًا وعلى جنودهم الحراس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري، ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراسٍ هزازة، وسجاجيد فارسية، وصور ومكاتب كبيرة، وقد صنعت أرض هذه الغرفة من الخشب المصقول المدهون بالشمع،

وكان شذى العطر يعبق أرجاء الغرف، فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفخمة، التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو، وعلمنا بعدُ أنَّ تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمع، يوقد أمام صور الرهبان، ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد.

وكادت جهودنا تذهب سدى، ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها، فلم نجد شيئًا يدل على وجود ديوان للتفتيش، فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهمًا باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافتٍ، وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت (دي ليل) استمهلني قائلًا: أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمَّتنا لم تنتهِ حتى الآن؟! قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئًا مريبًا؛ فماذا تريد يا لفتنانت؟! قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف؛ فإن قلبي يحدثني بأن السرَّ تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة -وكنا نرقب الماء- فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط «دي ليل» من شدة

فرحه، وقال: ها هو الباب، انظروا. فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعَلَتْها الغبرة.

محاكم التفتيش.. أهوال تشيب لها الولدان!

وفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعتُ إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهبٌ يسوعيٌّ يده على كتفي متلطفًا، وقال لي: يا بني، لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.

قلت له: يا هذا، إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك؟!

وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان

التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية، التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.

رأيتُ فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي.

رأينا غرفًا صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممدًّا بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.

وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.

كان السجناء رجالًا ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم في الرمق الأخير من الحياة.

كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبُّوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعًا عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.

أخرجنا السجناء إلى النور تدريجيًا حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا

يبكون فرحًا، وهم يُقَبِّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهدًا يُبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثم عثرنا على صندوقٍ في حجم جسم رأس الإنسان تمامًا، يُوضع فيه رأس الذي يُريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال؛ حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام في كل دقيقة نقطة، وقد جُنَّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذَّب على حاله تلك حتى يموت.

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تُثَبَّت فيه سكاكين حادة.

كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزِّق جسم المعذب المسكين، وقطعه إربًا إربًا.

كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشدُّ ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنف؛ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك، يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب، فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقًّا، وسحقها سحقًا، وأمسكوا كاتم سرِّه وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شرَّ ممزق، ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك، ولم تمضِ نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهبًا ثم أخذ ينهب ما بالدير».

وهذه شهادة أخرى من أحد الكتاب الأوربيين واصفًا فيها مدى الوحشية والدونية التي كانت عليها محكمة التفتيش ومدى الظلم والعذاب الذي لاقاه المسلمون، حيث يقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب:

«يستحيل علينا أن نقرأ، دون أن ترتعد فرائصنا، من قصص التعذيب والاضطهاد التي قام بها المسيحيّون المنتصرون ضد المسلمين المنهزمين، فلقد عمَّدوهم عنوة، وسلموهم لدواوين التفتيش التي أحرقت منهم ما استطاعت من الجمو، واقترح القس "بليدا" قطع رؤوس كل العرب دون أي استثناء ممن لم يعتنقوا المسيحية بعدُ، بما في ذلك النساء والأطفال، وهكذا تم قتل أو طرد ثلاثة ملايين عربي».

وكان الراهب بليدا قد قتل في قافلة واحدة من المهاجرين قرابة مئة

ألفٍ في كمائن نصبها مع أتباعه. وكان بليدا قد طالب بقتل جميع العرب في إسبانيا بما فيهم المتنصّرين، وحجته أنه من المستحيل التفريق بين الصادقين والكاذبين، فرأى أن يقتلوا جميعًا بحد السيف، ثم يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى، فيدخل النار من لم يكن صادقًا منهم.

يقول د. لوبون: «الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من 140 ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى إفريقية».



قصيدة أبوالبقاء الرندي في رثاء الأندلس

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأمورُ كما شاهدتها دولٌ مَن سَرَّه زمن ساءتهُ أزمانُ

وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ

وللحوادثِ سُلوانٌ يُسهلها وما لِما حل بالإسلام سُلوانُ

دَهى الجزيرة أمرٌ لا عَزاء لهُ هوى لهُ أحدٌ وانهدّ ثهلانُ

أصابها العين في الإسلام فارتزأت حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسيةً ماشأن مرسيةٍ وأين شاطبةٌ أم أين جيان

وأين قرطبةٌ دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمصٌ وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبقَ أركان

تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ من أسفٍ كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ

عَلى ديارٍ من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ

حيثُ المساجدُ قد صَارت كنائسَ ما فيهنّ إلا نواقيسٌ وصلبانُ

حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابر تَرثي وهي عيدانُ

ياغافلاً ولهُ في الدهر موعظة إن كنتَ في سِنَةٍ فالدهر يقظانُ

وماشيًا مرحًا يلهيه موطنه أبعد حمصٍ تغر المرءَ أوطانُ

تلك المصيبةُ أنست ما تقدمها وما لها من طوال الدهر نسيانُ

يا راكبينَ عِتاقَ الخيلِ ضَامرةً كأنّها في مجال السبقِ عُقبانُ

وحاملينَ سيوفَ الهندِ مُرهفةً كأنها في ظلام النقعِ نيرانُ

أعِندَكمُ نبأٌ من أهلِ أندلسٍ فقد سَرى بحديث القوم ركبانُ

كم يستغيث بنا المستضعفونَ وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسانُ

مَاذا التقاطعُ في الإسلام بينكمُ وأنتمُ يا عبادَ الله إخوانُ

ألا نُفوسٌ أبِيّاتٌ لها هِمَمٌ أمَا على الخير أنصارٌ وأعوانُ

يَا مَن لذلة قومٍ بعد عِزّهمُ أحالَ حالَهمُ جَورٌ وطغيانُ

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليومَ هُم في بلاد الكفر عُبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعِهِمُ لَهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا ربّ أم وطفل حيلَ بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهةً والعين باكية والقلب حيران

لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ مِن كمَدٍ إن كانَ في القلب إسلامٌ وإيمانُ

* * *



السيرة الذاتية



الاسم: أحمد أمين

كاتب روائي وباحث في التاريخ الإسلامي

المؤهل: ليسانس لغات وترجمة قسم اللغة الإسبانية وآدابها.

الأعمال الخاصة:

- تأليف قصة: خطوبة ثورية، والحاصلة على المركز الثالث في المسابقة الأدبية الكبرى 2014م.
- من تاريخنا المنسي (تحت الطبع).
- الكتابة لبعض المجلات والمواقع كمجلة الوعي الإسلامي والعربي الجديد وموقع ساسة بوست ونضارة.
- العمل كمراسل صحفي لعدد من الجرائد والمواقع الإخبارية.
- سينارست (كتابة أفلام قصيرة ووثائقية ودرامية).
- عضو نادي أدب العاشر من رمضان.

للتواصل:

Ahmed_amin8688@yahoo.com